الدكتور حسن هويدي

الوُجودُ الحَقُّ

الطبعة الرابعة

المكتب الاسلامي

١٣٩٤ هـ ١٩٧٥ م

المكتب الاسلامي : دمشق . ص.ب : ٨٠٠ . برقيا : اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ايها القارىء الكريم :

لعلك تعجب من ابتدائي لـك رسالتي (بالتسمية) ، وانا اريد ان احدثك عن قصة الوجود مـن البداية ، وانـت غير مسلم لي بحقيقة الايمان الى النهاية ، وانا معارض لـك بالعقل ، وانت غير مذعن لي بطريقة النقل ، ولكن لعل عجبك يزول اذا فرغت من قراءة الرسالة ، او تسلم لي على الأقل ، بان اكون منسجما مع ما تبين لي انه الحق .

وانني حينما اضع بين يديك هذه الرسالة ـ تبحث في الوجود والموجود ، والخالق والمخلوق ، والبدايـة والنهاية ، والخير والشر ، والسعادة والشقاء ، معترفا بتقصيري عن تناول بحث جلت خطورته ، وفاقت كـل ضرورة ضرورته ـ اجدني مسوقا الى ذلك بالدوافع التالية :

ان هذا الموضوع اصل تنشأ عنه جميـع الفروع ، ولا يسلم الفرع الا اذا سلم الأصل ، وهـو حقيقة تبنى عليهـا الأحكام ، وتقاس عليها النتائج ، ولاتصح النتائج الا اذا صحت

المقدمات ، ولذلك فهو من الأهمية في مكـان متضائل امامـه الغايات والمقاصد مهما جلت ، قديما وحديثـا . وان اكثـر الناس حينمـا يعرضون لهذا الأمـر لا يلتزمون فيـه العقل والمنطق ، وانما تكون احكامهم اتباعا لأهوائهم ، او جريا على سنن اسلافهم ، او تقليدا للشائعة الحديثة بين اقرانهم . وان الأكثريةتجهلما ورد في القرآن الكريم من حججدامغةحولهذا الموضوع ، فاردت اظهار ما كان خافياً منها ، وايصاله الى من كان معرضا عنها ولست افرض عليك ذلك فرضا دون ان تقرأ وتفكر وتقدر ، غير غافل عن شروط التحقيق ، من التجرد ، وحسن الفهم ، والاحاطة .

وان واقع شبابنا الحائر يقتضي وضع هذا البحث بين ايديهم ارواء لغلتهم وكشفا عـن ضالتهـم ، ذلك ان تركهـم وشانهم يبحثون في زوايا الكتب القديمة والحديثة ، مع ما في ذلكمنصعوبات لغوية،ومشكلات فلسفية،واتجاهات خاطئة، واحكام باطلة ، وما يستدعيه مثل هذا السعي ، من مجاهدة نفسية ودأب متواصل ، وفكر حاذق ، أقـول : ان تركهـم وشانهم في هذه المهامه ، واسلامهـم دون شفقة الـى هـذه المهالك ، تضييع واستهتارلايرتضيهما الانسان الغيورالمنصف لبني الانسان .

وقد بحثت في فرضية (دارون) بحثا يتناسب واسلوب هذه الرسالة في التحديد والاقتصار على الأصول ولقد دفـع الى هذا الاهتمام ما يثيره انصاف المثقفين من ادعياء العلممن

الشبهات حول الايمان بالله العظيم مستندين في ذلك الى فرضية (دارون) التي انهت مشكلة خلق الانسان - في زعمهم - بما اخرجته للناس من بحث النشوء والارتقاء . ولقد خاضوا خوضا باطلا ، تجلى في جهل الفرضية ذاتها لدى فريق منهم حيث تعصبوا لها ولعا بالجديد ، وجريا على التقليد . وتجلى في ضعف العين الفاحصة والقدرة على النقد لدى فريق آخر . حيث اكتفوا بأدلة الاثبات التي يروجها انصار الفرضية ، وأعرضوا عن ادلة النفي التي تدحض الفرضية ، فنظروا من وجه واحد ، واعرضوا عن الوجه الآخر ، فاخطاوا الصواب ، وتعلقوا بالسراب . ولو كان لدينا - ونحن نمر في فترة انحطاط - علماء لديهم الاحاطة والنزاهة ، وعميق التفكير ودقة النظر ، لما كنا حيال هذه الفرضية الواهية ، مقلدين تقليد الببغاء ، خانعين خنوع البلهاء ، نتبع كل ناعق دون تثبت ولا تمحيص .

ولعل من قبيل التفاؤل بنفع هذه الرسالة ، لا من قبيل الدعاية والغرض ان نذكر قصة صغيرة تتعلق بطبع هذا البحث قبل ان ينشر ويوضع بين أيدي القراء :

كلفت اخا لي بطبع هذه الرسالة منذ عدة سنوات وسلمته النسخة المخطوطة ، ولم يكن في حوزتي نسخة عنها ، فأضاع الأخ النسخة في طريقه الى دمشق ، ولما رجع من سفره كان أسفه شديدا ، لما يعلم من اهتمامي بالموضوع ، وخلو مكتبتي من نسخة اخرى ، وهو يقدر ان الوقت لا يسنح لي بالكتابة على الرغم من حضور الأفكار ، لأن مثل هذا الموضوع

لا ياتي بالاصطناع ، ولا يتحصل بمجرد النقل ، فرضيت بالواقع وخففت عن الأخ وجده وقلت : ان كان فيه خير ونفع للناس فعسى أن ييسر الله أسباب العثور عليه وانطوى البحث .

فاجأني الهاتف بعد مدة بوجود النسخة في احدى القرى النائية ، وكانت قصة فقدها أن الأخ انتقل في احدى مراحل سفره من سيارة الى أخرى، ونسي النسخة في السيارة الأولى ، وقصدت السيارة بلدا آخر ومنه توجهت الى قرية من قرى تلك الناحية، وقد خطر للاخ أن يكلف أحد المسؤولين في ذلك البلد بتحري السيارات المتوجهة اليه في ذلك اليوم، وقد فعل ولكنه لم يظفر بالسيارة . غير أنه لم ييأس ، ولو ان اليأس يخامر النفس في مثل هذه الأحوال ، فاستمر يسأل في القرى التابعة للمنطقة الى أن عثر على النسخة في أحد بيوت القرية لم ينلها شيء من تلف كان قريبا منها ومحيطا بها ، وأعيدت الي سالمة لم تمس بسوء .

وقد تجد أيها القارىء أثناء مطالعة هذه الرسالة شيئا من العمق تستلزمه طبيعة البحث ، فأرجو ألا تضيق به ذرعاً . وقد تجد حجة دامغة ، وبينة واضحة ، فأرجو أن يكون نصيبك منها التسليم للحق ، لأنه ليس وراء التفكير السليم والبرهان الناصع من وسيلة تسترشد بها (فماذا بعد الحق الا الضلال) [يونس : ٣٢] .

وقد تجد اصرارا على تأكيد الحكم بعد ثبوته وليس ذلك

ن قبيل التعصب العامي ، والاصرار السطحي،وانما قصدت
لي ذلك قصدا ، تقريرا له في العقل ، وتبديدا لما يعارضه من
اطل القـول .

وقد تعرض بعد قيام الحجة ، وظهور البينة ، وأرجو
لا يكون ذلك نصيبك من البحث ، فانت المسؤول حينئذ عن
لخطأ ، لا يشارك هواك على الحجة القاطعة ، والبرهان الصريح
ـ وذلك هو التعصب العامي والتقليد المقوت ـ ولا تلم أحدا
عد ذلك عن سوء النتائج ، فانما هواك أخرجـك عـن جادة
الصواب .

(فان لم يستجيبوا لك فاعلمانمايتبعون أهواءهم . ومن
ضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) [القصص : ٥٠] .

هذا ولا أقول:انيسأستوفي الموضوعاسهاباً وتفصيلا،
أو أكون فيه علىمستوى العصمة اصابةوتحقيقا ، ولكنيأقدم
قدر استطاعتي من الخطوط الأساسية ، ما أتمنى أن اوفق
فيه الى الحق ، وان يقع من القراء موقع الحجة والبرهان .
والله الموفق الهادي الى سواء السبيل .

حسن هويدي

دمشق ١٠/ شعبان ١٣٩٤
٢٨/ آب ١٩٧٤

الوجـــود

قبل أن نبحـث في فلسـفة الوجـود ، يجب إثبات الموجود •

وان قضية إثبات الوجود وإن كانـت قضية فلسفية جافة على الصعيد الفلسفي ، أو بديهية لا تحتاج الى برهان على الصعيد الحسي لكننا نرى أنه لا غنى لنا عن التعرض لها ، لكي نقطع دابر الشك في البداية ، فيسلس لنا البحث القيادة في النهاية •

إننا حينما نذكر الوجود ، نذكر العدم ، وحينما نذكر العدم ، نكون بين أمرين : إما أن ننفيه فنكون قد أثبتنـا الوجود ، وإما أن نثبته فنكون قد أثبتنا حقيقة ، واذا أثبتنا حقيقة أثبتنا الوجود ، إذاً فالعدم المطلق محال •

أو أن نقول : إذا أثبتنا أو نفينا ، فقد أثبتنا أنفسنا ، إذن فالوجود قائم ، والعدم المطلق محال ، وذلك هو الذي جاء به (ديكارت) حينما قال : «أناأفكر،اذن أنا موجود »

وقد سبقه الى ذلك (ابن سينا) بأجلى من ذلك وأوضح ، فاشتهر البرهان للمتأخر والفضل فيه للمتقدم .

ومنه الوجود المطلق ، ومنه الاضافي ، كما أن منه العدم المطلق ، وهو محال ، ومنه الاضافي وهو واقع ، فالمطلق من الوجود : مالا حد له من البداية والنهاية ، وهو الأزلي الأبدي ، وسيأتي الكلام عليه ، والاضافي : ما اقترن ببداية، أو نهاية ، وكان عرضة للتغير ، وسيأتي الكلام عليه أيضاً في حينه ، كما سيأتي الكلام على العدم الاضافي المقابل للوجود الاضافي .

وإذا كان للحواس دور كبير في نقل الصور الحسية لتكون طريقاً إلى ادراك الوجود ، فلا يفوتنا أن نذكر أن الحواس تقصر تقصيراً بيناً عن إدراك بعض ما في الوجود ، بعد أن ثبت وجوده ثبوتاً علمياً لا مجال لانكاره . فالعين ترى الألوان ولكنها تقف عند حد معين محصور في الطيف الضوئي ، ولا ترى ما فوق الأحمر ، ولا ما تحت البنفسجي، كما أنها لا تستطيع بذاتها تقدير البعد الثالث مما ينشأ عنه نسبية في ضبطه لولا التجربة والحساب . والأذن تسمع الأصوات ، ولكنها لا تسمع إلا ما وقع تواتره بين حدين

معينين ، وهي بالنسبة لبعد الصوت وقربه عاجزة عن التقدير أيضاً ، فقد تفسر الهزة الضعيفة بأنها هزة عنيفة آتية من بعد ، أو أنها فعلا هزة ضعيفة مصدرها قريب ، أي : أن ما تنقله إلى موطن الاحساس عن الاهتزاز العنيف البعيد هو ما تنقله عن الاهتزاز الضعيف القريب ، بغض النظر عن الطابع أو اللحن المميز .

والجلد ينقل الاحساس بالحرارة والبرودة ، ولكن إحساسه بها نسبي ، فاليد الحارة إذا غمستها في ماء دافىء، تجده بارداً ، واليد الباردة اذا غمستها في الماء الدافىء نفسه ، تجده حاراً ، وهو هو ما اختلفت درجة حرارته ، ولكن الاحساس الذي نقلته حاسة اللمس كان متناقضاً مختلفاً .

وهكذا نجد أن الحواس التي هي منافذ الادراك الأولى ، لا تحيط علماً بجميع الموجودات ، وتلحقها النسبية في بعض الادراكات ، وهذا يلفت النظر الى أن الحواس لا تكفي وحدها لمعرفة الوجود والاحاطة بكل موجود ، وبالتالي يسقط نظر من يقول : إنه لا يؤمن إلا بما تراه عينه أو يقع تحت حسه .

ونحن إنما نلاحظ هذه الملاحظة في شأن الحواس،وما تنقله إلى موطن الاحساس ، ومـا ينشأ عنه مـن ادراك ، ليستقيم نظرنا الى الوجود منذ اللحظة الأولـى ، ولنضبط المقاييس ، ونستعملها جميعاً في سبيل الحصول على المعرفة، ولكي لا نقع في شطط الافراط ، ولا ظلم التفريط ، فان من قصر المعرفةعلى الحواس حرم المعرفة،ومن افتتن بنسبيةماتسوقه الحواس ، وأنكر نفعها ، وقع في الريبية المطلقـة ، ولكننا نستعمل الحواس ، ونصغي الـى العقل ، ونذكر النسبية ، ونضع كلا في موضعه ، ونستعمله ضمن حدوده •

وعند ذكر الوجود وثبوته ، نذكر فريقاً مـن الناس يقولون حيال قضية الوجود بالريبية المطلقة ، وهي شكوك لا تقف عند حد ، أو هي (اللاأدرية) في المـادة والمعنى ، فان سألت أحدهم : هل هو موجود ؟ قال : لا أدري !

هل يشعر بنفسه ؟ قال : لا أدري !

أهذا الأمر خير أم شر ؟ قال : لا أدري !

فهو في ظلمات بعضها فوق بعض ، لا يدري،ولا يدري أنه لا يدري •

وهذه الريبيةالمطلقة منقوضة من ذاتها ، ذلك أنالريبي المطلق اذا حكم حكماً فقد أثبت حقيقة ، واذا أثبت حقيقة ، هدم الريبية المطلقة ، لأن القول بها لا بد له من حكم ثابت ، وأنى لهذا الحائر المتردد من ثبات أو قرار ، فهو قد أضاع نفسه ، فان لم يجد نفسه ، فكيف يرشد غيره ؟

على أن فريقاً من الجهلة السطحيين ، أو الأدعياء المكابرين ، يصطنعون هذه الريبية اصطناعاً ، ويقلدون السفسطائية تقليداً لمجرد التفلت من الحقيقة ، والخروجعلى الفضيلة ، ومثل هؤلاء لا يقام لهم وزن في هذا المجال أكثر من الاشارة اليهم ، والتنبيه الى خطرهم ، حيث يؤدي القول بالريبية المطلقة الى الفوضوية المطلقة فلا معرفة ، ولافضيلة، ولا خير ولا شر ، ولا عدل ، ولا ظلم ، وإنما هي شريعة الغاب ، وطبيعة الذئاب ، ونتيجة ذلك كله هدر للعقل،وهدم لكيان الانسانية ، ورجوع بها الى البهيمية وظلمات القرون الأولى ، وتلك رجعية خطرة قبيحة .

على أننا لو بادرنا الى هذا الدعي الهائم على وجهه في بحر التردد والحيرة والذي عدم ـ بزعمه ـ التمييز بين نافع وضار ، وطلبنا إليه أن يلج النار،لامتنع ، !قراراً بحقيقة

الاحراق ، أو أن يتجرع السم الزعاف ، لأحجم ، اقراراً بحقيقة الأذى • أو أن يتغذى بالقذر والنتن ، لغضب إقراراً بالفرق بين الطيب والخبيث ، وهكذا نجد أن فعله يكذب قوله ، فهو متناقض متهافت ، جاهل متردد ، ويجدر بالعاقل ألا يكون منقاداً لجاهل ، وبالبصير ألا يكون فريسة لحائر مرتاب !

وبتبديد شبهة الريبية المطلقة ، وما تجر من آثار سيئة على الفرد والمجتمع ، وثبوت حقيقة الوجود ، تثبت لديك أيها القارىء أنواع الموجودات المادية : ما بين خفيف وثقيل، وخشن وأملس ، وحار وبارد ، ورطب ويابس ، ومرئي ومسموع ، ومذوق ومشموم •

والموجودات المعنوية : ما بين معلوم ومجهول (ومنه تنشأ المعرفة) ، ونافع وضار (ومنه تنشأ الأخلاق[1]) ، وهكذا تبتعد عن غائلة السفسطائية ، وتقر ــ مع العقلاء ــ

---

(١) لا نعني بذلك بناء الأخلاق على المنفعة الشخصية القريبة، وانما اردنا الاشارة الى الاصل ، لأن اصل الأخلاق مبني على ظلم وعدل ، والظلم اذى ، والأذى ايقاع الضرر .

بسلطان الموجودات ، وتأثير المحسوسات،ولم تكذب الحس القاهر ، والادراك الباهر ، وتنجو من بؤرة التناقض المشين، ووهدة الحيرة القاتلة ، وظلمة الجهالة الحالكة .

ولا شك أن ذلك لا يحصل لك كاملا ، دون التفصيل في أنواع هذه الموجودات ، وتحديد الاتجاه على ضوء ذلك التفصيل في حدود البحث الذي عيناه،وعلى المستوى العقلي الذي عنيناه .

*

السَبَبيّة

منذ امتياز هذا الانسان بالادراك ، وإشراق أشعة عقله على الوجود ؛ تساءل ــ ولا يزال ــ عن مبدئه ومنتهاه،فهو يتساءل:من أين أتى ؟ والى أين يصير ؟ وهو اذ ينصرف فكره الى أن وروده المباشر الى هذا العالم إنما كان من رحم أمه ، أو من نطفة أبيه ، لا يقتنع بهذه النظـرة السطحية القريبة ، دون النظر الى المبدأ الأول والبحث عـن السبب الأساسي الذي ترجع اليه جميع الأسباب .

ولهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية ، والذي ولد معها وما زال يلازمها ، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل ، فنشأت أحكام مختلفة ، ونظريات متباينة ، وكان منهم مخطيء ومصيب . غير أننـا اذا نظرنا الى ما بين أيدينا من السماء والأرض ، نرى أن المطر ينهمر من سحاب ، وأن الثمر يحصل من شجر ، وأن الشجر ينبت من الماء والتراب ، وأن الماء ينشأ من عنصري (الأوكسجين)

و (الهيدروجين) ، ولم يشاهد الانسان منذ فتح عينيه على الوجود ، أن حادثاً حدث من غير سبب ، أو أن شيئاً وجد من غير موجد ، حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر، لا يتصور العقل خلافه ، ولا يطمئن الى غيره ، ولا يأبى الاقرار به إلا عقل مريض ، شأن المتوهين ، أو عقل قاصر ، شأن الطفل الذي يكسر الاناء ثم يقول : إنه انكسر بنفسه ! ولذلك وجدنا ذلك العربي قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية ، فنادى نداءه المشهور : « البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا تدل على الصانع الخبير » ؟ !

لهذا الواقع الصريح ، والادراك القاهر ، وجريان الحوادث أبداً على هذا القانون ، أضحى هذا المبدأ مسلماً به في كتب الفلسفة ، وسمي بـ (مبدأ السببية) وهو أول مبادىء العقل المديرة للمعرفة ، لأنه أساس الأحكام العقلية ، والمحاكمات المنطقية ، ولو التفت الى كلماتك التي تخاطب بها الناس صباح مساء ، والأحكام التي تنظم بها شؤون حياتك ، لوجدتها لا تخلو في أي مرحلة من المراحل ، من الاستناد الى مبدأ السببية .

إذن فقولنا : (لا بد لكل حادث من محدث) أمر يقيني مسلم به ولا يقبل العقل غيره ، وبالتالي : محال على حادث أن يحدث بذاته ، وعلى شيء أن يوجد بغير موجد . وإليه الاشارة في القرآن الكريم : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟) [الطور : ٣٥] .

نقول بناء على هذه القاعدة : إن عالمنا هذا من أرض وجبال ، وبحار وأنهار ، وشجر ودواب ، وشموس وأقمار ، لا بد له من محدث ، وإن هذه الحوادث الفرعية الكثيرة مندفعة عن أسباب ، وهذه الأسباب مندفعة عن أسباب أخرى أقل من الأولى ، ولا بد أن نصل بالنتيجة الى سبب لجميع هذه المسببات ، ومحدث لجميع هذه الحادثات ، لأننا كلما رجعنا الى الأصل الذي اندفعت عنه المسببات ، قلت العوامل الدافعة ، حتى نصل أخيراً الى مسبب واحد . كنظرك الى أغصان الشجرة المتعددة المتشابكة ، فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها ، ذهبت الى قليل من كثير ، حتى تنتهي الى ساق واحدة ، وإنك تجد هذه الحقيقة في أمثلة كثيرة ، هي من الظهور بمكان لا تحتاج معه الى الوقوف الطويل وضرب الأمثال .

إذن فانكار محدث للحوادث وموجد للوجود،تناقض مع العقل ، وإقامة على الخطأ ، ولعل هذا الالــزام المنطقي الذي لا مناص منه ، سمى (ابن سينا) ذلك الموجد الــذي لا مناص من الاقرار به ، بالواجب الموجود،حفاظاً على حرمة العقل من أن يوصم بالتخطيط والتناقض ،أوالبلاهةوالتبلد، إذ يستحيل أن ينبثق الوجود من العدم •

هذا وإن قدم المبدأ ، أو قول كثيرين به ، أو ظهوره بمظهر البديهية ، لا يقضي عليه ، ولا يخرجه من الحق الى الباطل ، ما دام العقل يمليه ، والواقع يؤيده ، إلا إذا كان الداعي الى الانكاراستكباراً عن كل قديم ، أو عقوقاًللمنطق السليم ، أو جرياً مع كل هوى سقيم،شأن الحمقى والمرضى والمغرورين !

وقد يقول قائل : إن هذا المحدث لجميع الحوادث هو الطبيعة ، وسيأتي الكلام على الطبيعة ، أو يقول : إذا أقررنا بوجود الخالق ، فمن الذي أوجد الخالق ؟ وسيأتي تفصيل ذلــك •

والذي نريد أن نخلص إليه الآن واضحاً مجزوماً به :

لا بد لكل حادث من محدث ، إذن فلا بد لهـذا العالم من خالق •

ونسمي هذا المبدأ : القاعدة الأولى •

هنا قد يثير بعض النقاد قضية قدم العالـم وحدوثه فيقول : إن هذه القاعـدة تستقيم إذا سلمنا بحدوث االعالم ولم نقل بقدمه •

ونقول : إن البرهان ملزم بالقول بحدوث العالم ونفي قدمه ، فقد قال الإمام الغزالي ، بناء على ملاحظـة الحركة والسكون : إن دورة من الفلك إما أن تكون شفعاً أو وتراً، فان كانت شفعاً فقد أتمت عدداً فردياً ، وإن كانت وتراً فقد أتمت عدداً زوجيـاً ، إذن فالعدد السابق على كـلا الحالين محدود ، ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً ، ولـو استمر الناقد فقال : إن أصل العالم (هيولاه) قديم ، والحركـة طارئة ، قلنا له : من أين طرأت الحركة ؟ فهو إذن اقرار منه صريح بوجود مرجح آخر أثر على العالم بايجاد الحركة ، بل هو استعجال فاصل للاقرار بوجود خالق للعالم • فالناقـد بين أمريـن : إما أن يرجع الـى قولنا بالحدوث ، فيعترف بالخالق ، أو أن يقر بوجود المرجح وهو اعتراف بالخالق •

إذن فنقد الناقد واه لم يصل الى القرار ، ولم يثبت للنقد •
والقول بقدم العالم باطـل لا يسنده برهان وهكـذا تنهار
(المادية الجدليةDialoctique) التي تقول بقدم العالم ، هرباً
من الإقرار بوجود خالق للعالم ، وتفلتاً من البرهان الملزم ،
والدليل القطعي •

وقد تستغرب قولي بانهيارها بهذه السرعة ، ولكني
أقول : إن عقداً في نظام لو بلغ ألف حبة ، لانفرط كله بحل
العقدة الأولى • وإن لم ترد ذلك فاحذف من المادية الجدلية
قولها بقدم العالم ، حيث ثبت أن ذلك باطل ، فأول حكـم
تهدمه من أحكامها الأساسية إلحادها في الخالق ، وعنـد
الإقرار بخالق الوجود تنشأ أحكام أخرى ، تهدم أحكامها
الفرعية دون أن يكون النقد موجهاً الى الفروع مباشرة،لأن
ظهور الباطل في أصول النظريات لا بد أن يهدم الأباطيـل
الناشئة عنه في جميع الفروع بصورة عفوية ، كالبناء الشامخ
يتداعى جملة واحدة بنقض أساسه ، ولقد صورت الآيـة
الكريمة التالية هذا المعنى بتلك الصورة المحسوسة الرائعة:
(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من

أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) [التوبة : ١٠٩] •

إذن فهذا العالم حادث غير قديم قطعاً ، وما قال بقدمه من قال إلا فرضاً للرأي بغير برهان ، ومجانبة للحـــق دون تبيان ، ولما كان حادثاً فلا بد له من محدث ، كمـــا ذكرنا في القاعدة الأولـــى •

★

الخالق الأوّل

بعد أن أقررنا بوجود خالق للكون ، يسوقنا التحقيق الى البحث عن صفاته،ذلك أن المعرفة مرتبطة بادراك الصفات، وأن الصفات منها ما هو أساسي يحدد النهج ويقرر الحكم، ومنها ما هو كمالي يؤدي الى ازدياد المعرفة وغزارة العلم ، وأن المعرفة تكون إحاطة إذا ألمت بجميع صفات الكائن وخصائصه ، وتكون أدنى من ذلك اذا قصرت عن ذلك الإلمام بمقدار قصورها عن إدراك تلك الصفات والخصائص.

فما هي الصفة التي يمكننا أن نعرف بها الخالق ؟ وما هي حدود معرفته ؟ وهل يصح السؤال عن موجد للخالق ؟

١ – هل من صفة نميز بها الخالق ؟

لقد أقررنا بأن هذا العالم حادث ، إذن فهذه الكائنات التي ندركها في العالم الخارجي حادثة ، ومعنى ذلك أنها عرضة للتغير والأفول ، وأن صفاتها الطارئة تملى عليها إملاء وتتحكم بها قهراً وإلزاماً ، ولم نجد بين الحوادث حادثاً

يستطيع دفع ذلك أو التجرد منه ، ولذلك وصفنا الحوادث بالعجز والنقص • وإذا أردنا أن نختصر طريق الاستقراء ، عمدنا الى الانسان الذي هو أكمل هذه الكائنـات ، فاننا نجده مقهوراً لأسباب كثيرة ، فهو يولد ، ثـم يعاني آلام الحياة ، ثم يموت ، يجري عليه كل ذلك رغم أنفه •

إذن فهذا الكائن الذي سما على جميع تلك الكائنات، بما أوتي من عقل وإدراك واقتـدار ، محصور في حدود الحدوث والعجز والافتقار ، مدين الى غيـره في وجوده ، مفتقر الى من يسد عجزه ، ويصلح شأنه •

ولو سألته :

هل خلق من غير سبب ؟ لأبى عليك المحال وأنكره •

ولو سألته :

أهو الذي خلق الكائنات ؟ لاستنكر أن يقول ماليس له بحـق !

وإنك تجد هذا التحقيق واضحاً في القرآن الكريم في عدة صور ، منها ما ورد بشكل حجة منطقية ، ومنها ماستند الى الواقع في آياته الكونية ، كما في الآيات الكريمة التالية، فتجده أولاً حجة واضحة ملزمة •

(أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون • أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون • أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ؟) [الطور : ٣٥ ــ ٣٧] •

وتجده في صورة أخرى يظهر عجز الانسان عن التصرف في شؤون الكون : (ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر) [البقرة : ٢٥٨] •

وفي هذا بيان جلي لعجز الانسان ، وإجبار قاهر يقوده الى الإذعان ، ولكي يبرز هذا المعنى ــ وهو قصور الانسان عن إدارة الفلك وعجزه عن تدبير أمر السماء والأرض ــ يناديه الكتاب بآيات أخرى :

(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟) [القصص : ٧١ ــ ٧٢] •

ولقد التفت الفكر الى هذا المعنى ، وتعلق النظر بخالق للكون ــ غير هذا الانسان لزاماً ــ حتى أصبح ذلك بمثابة البديهية ، وانظر الى الجواب العفوي الذي ينطلق من فم الانسان دون تردد إذا ما سئل عن هذه الحقيقة : (ولئن سألتم من نَزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) [العنكبوت : ٦٣] .

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) [العنكبوت : ٦١] ، والمقصود من الجواب « ليقولن الله » تعلق الانسان بخالق آخر غيره، لأن هذه الموجودات خارجة عن نطاق قدرة الانسان .

ولما أضحت هذه الحقيقة في هذه الدرجة من البداهة والوضوح ، أشارت الى ذلك الآية القرآنية : (قالت رسلهم أفي الله شك ؟ فاطر السموات والأرض) [ابراهيم : ١٠] .

إذن فالخالق الذي نريد معرفته لا بد أن يكون فوق الانسان علماً وقدرة ، وإذا كان محدثاً لجميع الحوادث فهل يبقى في حدودها ؟

الذي نجزم به أنه غير حادث ، ولا تعتريه صفات

الحوادث ، لأنه لو كان حادثاً لاعتراه الفناء والعدم،وتكون النتيجة : ان العدم أصل للوجود ، وذلك مستحيل •

قال بعضهم : إن التسلسل باطل[1] على زعم أنه محدث الحوادث حادث أيضاً ، ولا بد له من محدث ، وتلك سلسلة لا تنتهي • فتوقفوا عند ذلك الحد من النظر ، ولم يلتفتوا الى أنه يستحيل أن يكون العدم أصلا للوجود ، وبهذا يتبين بطلان قولهم وقصر نظرهم •

ونحن إنما نذهب الى هذا الحد من العمق لاستئصال آخر بذرة من بذور الشك ازاء هذا الموضوع ، فلقد كانت هذه النقطة من البحث ــ وهي تقدير أن محدث الحوادث ليس بحادث ــ هي العقدة الأخيرة التي يقف عندها المرتاب، ويتباهى بها الملحدون ، فيتهمون المحققين أنهم مضطرون لافتراض أن محدث الحوادث ليس بحادث،في الوقت الذي ترى فيه أن الأمر ليس افتراضاً،وإنما هو برهان قاهر وحكم قاطع •

ومن الفلاسفة من لم يذهب الى هذا الحد من العمق ، بل جزم بأن هذه السلسلة لا بد أن تنتهي عند حد ، حينما

(١) يقصد بذلك مبدأ السببية وانتهاءه الى الخالق .

قرر أنه لابد لهذا الكون من خالق ، فلقد قال أرسطو : (إن هذه السلسلة من الأسباب لا بد أن تنتهي الى سبب وحيد أول هو أساسها ، لأن العقل لا يقبل أن تستمر هذه السلسلة الى ما لا نهاية وهذا السبب الذي تنتهي عنده السلسلة هو الله تعالى) وقد قال بهذا القول فريق من الفلاسفة وعلماء الكلام ، وأضافوا الى ذلك أن هذا التسلسل إما أن يكون مستقيماً ممتداً الى اللانهاية ، فيفضي الى البرهان الذي ذكره (أرسطو) أو أن يكون مستديرا فيفضي في النتيجة الى أن يكون الحادث عين المحدث (بالتقاء طرفي الدائرة) وذلك مستحيل ، فتكون النتيجة أن التسلسل في شكله المستقيم والمستدير لا بد أن يقود الى القول بأن الخالق غير حادث وبريء من الحدوث، وهذه الصورة الأخيرة تعرف (بمسألة الدور) عند علماء الكلام .

غير أن هذا الجزم قد لا يشفي الغليل دون ملاحظة المعنى الذي أوردناه وهو أن افتراض الحدوث في خالق الموجودات يجعله قابلا للزوال والعدم ، ومعناه أن العدم أصل للوجود ، وهذا مستحيل .

والحق أن الخطأ نشأ عند أولئك عن المزج بين نقطتين: **الأولى : هي الإقرار بموجد الموجودات (وهو الزامي)**

والثانية : هي صفـة الموجد ، أهـو حادث أم بريء مـن الحدوث ؟ فحينما يبحثون في النقطة الثانية ، (ويترددون في براءته من الحدوث) ينكرون النقطة الأولى التي قام عليها الدليل القطعي ، وهي الإقرار بخالق الموجودات • أي : أن التردد في معرفة صفته ينفي عندهم وجوده وهذا هو الخطأ، لأنك قد ترى النور ولا ترى مصدره ، فهل تنكر المصدر ؟

وقد ترى ظل الرجل ولا ترى الرجل، فهل تنكر وجود الرجل ؟

الحق أن هذا النوع من الانكـار أقرب الى النـزق الصبياني منه الى التحقيق الفلسفي • على أننا لم ندع مجالا للشك حتى في هذه النقطة البديهية حينما قررنا أن محدث الحوادث غير حادث، لأنه لو كان حادثاً لاعتراه العدم والفناء، ويستحيل أن يكون العدم أصلا للوجود[1] •

وإذا ثبت لدينا أن خالق الكون غيـر حادث قطعاً ، ويرتفع بصفاته عـن صفات الحوادث مـن العجز والنقص

---

(١) ونقصد بالأصل « أصلا من القدرة » لا أصل الفرع والانقسام ، لأن ذلك من صفات الحوادث .

والأفول ، وأن قدرته قد أحاطت بالوجود خلقا وتصريفا ، فان ذلك يثير في أنفسنا قضية كماله ، أفيمكن القول : انه كامل مطلق ، أم إنه في حدود الكمال النسبي ؟

إذا قلنا بكماله النسبي ، كان المعنى أنه لا بد أن ينتهي كماله عند حد من العلم والقدرة ، والحدود أبداً من صفات الحوادث ، من مبدأ ونهاية ، وصغر وكبر ، وقلة وكثرة ، فكل حادث محدود ، وكل محدود حادث ، ولا يمكن أن يتبرأ كائن من الحدوث ما لم يتبرأ من أي نوع من أنواع التحديد ، إذن فالخالق الذي يتصف بالكمال النسبي تصوراً، حادث من الحوادث ، والخالق الذي بريء من الحدوث لا يمكن إلا أن يكون كاملا كمالا مطلقا، لا يلحقه عجز في علم ولا قدرة ، ولا يوصف بنسبية ولا تحديد ، وقد قررنا من قبل أن خالق الوجود غير حادث قطعا ، إذن : فالخالق الأول كامل كمالا مطلقاً ، ونسمي هذا المبدأ :

القاعدة الثانية .

٢ ـ ما هي حدود معرفة الخالق ؟

يقضي المنطق أن الصغير لا يستوعب الكبير ، وان

الناقص لا يحيط بالكامل ، وقد عرفنا أن الانسان لا يتمتع بأكثر من الكمال النسبي ، وأن الخالق يتصف بالكمال المطلق، ومعنى ذلك أن الكمال النسبي لا يمكن أن يحيط بالكمال المطلق ، كما لا يحيــط العدد المحدود باللانهايــة ، أي :أن الانسان لا يمكن أن يحيط بالخالق حين البحث في معرفته ، أوأن يدركه إدراكه للمحسوسات التي بين يديه . ويجب أن لا نغفل عن القول أن عدم الاحاطة لا يقتضي عدم المعرفة ، فان طفلا صغيراً يمكن أن يعرف رجلا كبيراً دون أن يحيط بجميــع صفاته ، فالطفل عرفه ولكنه لم يحط به ، وتجد هذا المعنى واضحاً في نداء الصديق الأول حول معرفة مبدع الموجودات، إذ عرفه ولم يحط بــه فقال : « العجز عــن درك الادراك إدراك » .

كما تجد ذلك مصورا تصويرا حسيا فيما يروى عن رجل مرتاب مر برجل مؤمن على ساحل البحر، فدعاه الى الايمان، فأبى إلا أن يرى الله جهرة، فانتحى المؤمن جانباً وحفر حفرة صغيرة وأخذ يصب من ماء البحر والماء يطفح من جوانبها ، واستمر على ذلك ، حتى عجب منه صاحبه ، فأقبل عليه قائلا : ماذا تفعل ؟ قال : أريد أن أنقل البحر الى هذه الحفرة ! قال : وهل

يفعل ذلك عاقل ؟ وهل تستوعب هذه الحفرة الصغيرة مياه البحر الكبير ؟ قال المؤمن : وهل يستوعب هـذا الانسان الصغير الخالق الكبير ؟! وانك لتجد تحديد هذا النوع من المعرفة في آيات القرآن الكريم :

(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) [الأنعام : ١٠٣] • لأن ادراك الاحاطةمن خصائص الأكبر بالنسبة الى الأصغر ، وهو مفقود في الأصغر بالنسبة الى الأكبـر •

(وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) [البقرة : ٥٥] • لاستحالة اشتمال العين عليه ، لأنه ليس مـن الحوادث المحسوسة ، فينتقل بطريق الحس •

(قال ربِّ أرني أنظر إليك ، قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً) [الأعراف : ١٤٣] • وفيه اشارة الى أن الخالق لم يحجب نفسه ضناً على المخلوق، بل ان نقص المخلوق هو الذي حجبه عن الرؤية •

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [الشورى: ١١] . وما دام لا يماثل الأشياء ولا تماثله فلن يدرك إدراك الأشياء .

اذن فالذي نخلص اليه أن المبـدع الأول لا يمكن أن نحيط به حين معرفته ، ولا أن ندركه إدراك المحسوسات ، فهو يعرف معرفة ، ولا يحاط به إحاطة ، ونسمي هذا المبدأ: القاعدة الثالثة .

٣ ــ هل يصح السؤال عن خالق للخالق الأول ؟

ستجد أن السؤال ــ أصلا ــ لا يصح لما يشتمل عليه من تناقض ذاتي ، على الرغم من كون هـذا السؤال أول ما يلقاك به المرتاب ، وآخر ما يستند اليه في المكوث على الشك ، ونستطيع أن نقول : إن هذه الشبهة التي يقيـم في ظلماتها الكثيرون ، هي التي ردت كثيراً من الناس اليوم عن قبول الحق ، وهي نتيجة سيئة لامتداد الفلسفة الى ماوراء حدود أهلها ، حتى بلغت عقول العامة من المتطفلين على الفلسفة ، أو أدعياء المنطق ، فأصبحوا يهرفون بما لا يعرفون ، وهم لقصور باعهم في هـذا المضمار ، لا يستطيعون تمحيص الحق مـن

الباطل ، ولو أخلصوا في ذلك ، لعدم الاستعداد ، كالرجل الذي لم يدرس الهندسة والحساب، يحاول أن يبرهن لك على صحة نظرية (فيثاغورس) مثلا ، وإليك البيان الذي يهتك هذه الشبهة :

ألزمتنا القاعدة الثانية بالاقرار بكمال الخالق المطلق ، والكامل المطلق لا يمكن أن يحتاج الى غيره ، لأن احتياجه يطعن في كماله ، وقد تقرر لدينا بما لا يقبل الشك أنه غير حادث ، واذا كان غير حادث ، فكيف يسأل عن محدث له ؟

وقولنا هنا ، بعد إقرارنا بكماله : أين موجد الكامل المطلق ؟ تناقض بين ، وخطأ ذريع تشتمل عليه الجملة في طرفيها ، فأولها عجز وافتقار : (أين موجده ؟) . وآخرها (كمال مطلق) لا يتطرق إليه العجز والافتقار ! إذن فالكامل المطلق لا يفتقر بحكم كماله الى سبب يحدثه ، والا كنا مضطرين الى نقض كماله ، وذلك أمر ثابت عندنا مقرر (القاعدة الثالثة) .

ولعل بعض السطحيين يظن أن هذه المفاجأة بهذا السؤال غريبة على عقول المؤمنين بالخالق، والحق أن السؤال ليس مفاجئاً ، فقد أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في

الحديث : « إنكم تسألون بعدي عن كل شيء ، حتى يقول القائل : هذا الله خلق كل شيء ، فمن ذا خلقه ؟ » .

والتورط في هذا الخطأ راجع الى علة نفسية ، ذلك أن شدة سيطرة القاعدة الأولى الخاصة بالحوادث (لا بد لكل حادث من محدث) والتي تبرز لأعيننا في مئات الحوادث كل يوم ، جعلتنا نطبقها سهوا ـ لا على الأشياء فحسب ـ بل حتى على الذي (ليس كمثله شيء) غفلة منا ، وانصياعا للتصور الغالب ، شأن رجل يشتغل طوال عمره بكيمياء النحاس ، فعرض له الذهب فجأة ، فراح يطبق عليه قوانين النحاس ، أفتراه يصيب ، أم يخطيء ؟ لا جرم أنه مخطيء وأن خطأه نشأ من انهماكه الدائم في قانون معين ، وغفلته عن التفريق بين القوانين حينما اختلفت مجالات التطبيق ، ولقد عرفنا أن خالق الحوادث لا يتصف بالحدوث قطعا ، فكيف نطبق عليه قانون الحوادث ؟!

ذكروا أن رجلا جاء الى أبي حنيفة فقال : إذا أقررنا بالخالق فمن ذا خلقه ؟ قال عد من الواحد صعودا ففعل الرجل .

قال : عد قبل الواحد ، قال : ليس قبل الواحد شيء .
قال : كذلك ليس قبل الواحد شيء !

والحقيقة الكامنة في هذا المثال ، هي أن الأعداد لها محدثات هي الأرقام ، وجميعها متشابهة من حيث الحدوث، وأن تلك الأرقام أسباب ضرورية لها ، ولا يمتاز عنها الا الواحد حيث لا يوجد له أرقام تؤلفه ، وغني عن البيان أن الأرقام السلبية ليست غرضنا ، لأن السلب عدم .

والخلاصة أن الخالق ليس بحادث ، فنطبق عليه قانون الحوادث في السؤال عن خالق له ، فذلك غير سائغ ، وأنه كامل مطلق ، والكامل المطلق لا يحتاج الى غيره ، وبذلك ينهدم آخر صرح من صروح الشك فنقول : الكامل المطلق لا يمكن أن يفتقر الى الموجد ، ونسمي هذا المبدأ : القاعدة الرابعة .

وبناء على ما تقدم نستطيع ترتيب القواعد الأربع المتقدمة حسب التسلسل المنطقي التالي :

(١) لا بد لكل حادث من محدث .

اذن فهذا العالم لا بد له من خالق :

فانكاره ضلال وخطأ .

(٢) أن هذا الخالق كامل مطلق : فنسبة العجز والافتقار اليه ضلال وخطأ .

(٣) ان الكامل المطلق لا يفتقر الى الموجد : فالسؤال عن خالق الخالق ضلال وخطأ .

(٤) يعرف الكامل المطلق ولا يحاط به : فتوقف الاقرار به على الرؤية أو الاحاطة ، ضلال وخطأ .

*

الطبيعة

بعدما تبين لك ، بما لا يقبل الشك وجود الخالق الأول ، وأنه الكامل المطلق ، وأن السؤال عن خالق الكمال المطلق لا يصح ، وتبددت أمامك تلك الشبهات ، بقيت شبهة من شبهات العصر ، وضلالة أخرى من ضلالاته ، وهي – كما سيظهر لك – مصطنعة كما تصطنع الأصنام ، مخيمة على الأحلام كما تخيم الأوهام ، ولكنها بكل أسف مع اصطناعها هذا ، وعدم استنادها الى أساس ، نجدهامسيطرة على عقول كثير ممن يدعون الثقافة والمعرفة ، وقد انطلت عليهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص ، تلك الشبهة هي الطبيعة ، إله العصر المزعوم ، وانك حينما تبادر أحد الطبيعيين بالقول :

من خلق السموات والأرض ؟ يقول لك : الطبيعة .
من خلق النبات والحيوان ؟ يقول لك : الطبيعة .
من خلق الانسان ؟ يقول لك : الطبيعة .
من يدبر جميع هذه الأمور الفلكية ، والحيوية ،

والغريزية وكل بحساب دقيق ، ونظام لايحيد ؟ فسيقول لك الطبيعة .

وهو يتذرع لك بهذا السبب ، لأنه لا يستطيع أن يقول لك : انها تحدث بذاتها ، أو من تلقاء نفسها ، وينكر قانون السببية ، فيوصف بالغباوة والبلاهة ، فهو أصاب حين أقر بالسبب ، وأخطأ حين جهل السبب ، وليس شأننا حين البحث في هذا الأمر أن نكتفي بالتسفيه والتشنيع ، ولكننا نناقش الأمر من جميع الوجوه ، فما كان من حق أقررناه ، وما كان من باطل فندناه ، والعاقل الذي يصيخ الى المنطق ، والجاهل الذي يتبع هواه ، ويقيم على الباطل ولو تبين له الحق .

فما هي الطبيعة ؟ وما هي مفاهيمها ؟ وما هي حقيقة تأثيرها ؟

الطبيعة في اللغة : السجية والخلق ، غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس ـ حسب تفاوتهم ـ مفهومين :

المفهوم الأول : أنها عبارة عن الأشياء بذاتها ، فالجماد والنبات والحيوان ، كل هذه الكائنات هي الطبيعة ، وهو

مفهوم غير دقيق ، وحكم غير سديد كما سيتبين لك .

المفهوم الثاني : أنهاعبارةعن صفات الأشياءوخصائصها، فهذه الصفات : من حرارة وبرودة ، ورطوبة ويبوسة ، وملاسة وخشونة ، وهذه القابليات : من حركة وسكون ، ونمو واغتذاء،وتزاوج وتوالد،كل هذه الصفات والقابليات هي الطبيعة .

وسواء أكان القول الأول أو القول الثاني هو المعبر عن الطبيعة بحق ، فما نصيب هذا القول من الحق ؟

أما القول الأول : فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماءبالماء،فالأرض خلقت الأرض،والسماء خلقت السماء ، والأصناف صنفت نفسها ، والأشياء أوجدت ذاتها ، فهي الحادث والمحدث ، وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته . وبطلان هذا القول بين ، فهو اما ادعاء بأن الشيء وجد بذاته من غير سبب،وقد تبين لك فساده بقانون السببية (اذكر القاعدةالأولى) ، واماازدواج الخالق والمخلوق في كائن واحد ، فالسبب عين المسبب ، وهو مستحيل ، بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج الى الوقوف والشرح .

وأما القول الثاني : وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين ، فنقول فيه : الحقيقة أن الذين يعزون الخلق الى تلك القابليات والخصائص ، لا يعدون عن كونهم وصافين لتلك الظواهر ، لا يعرفون كنهها ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها ، ولو فعلوا ذلك لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد شيئا • ولايضاح ذلك بالطريق العلمي نضرب المثال التالي :

نضع حبة في التراب ، ونسقيها بالماء ،فتنتفخ،وتنفلق، فيظهر منها الرشيم ، ويندفع منه الجذر الى الأسفل،والساق الى الأعلى ، وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار ، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلا •

فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ والانفلاق وظهور الرشيم •••• ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظواهر الحيوية ، ولما نشأت عنها الثمرة • فلنأت الى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها : لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء ، فمن الذي نفخها وفلقها ؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا : ان عقلها هو الذي هيأ

لها ذلك ، ولو أن الماء هو الــذي نفخها وفلقها ، لأمكــن للماء أن ينفخ في الحديد ويفلقه ، اذن فلا بد من مؤثر ، وقبول لذلك المؤثر ، وإذا كانت الحبة بذاتها ـ جدلاً ـ انتفخت وانفلقت فلماذا لم تجمد وتضمر بدلا من أن تنتفخ وتنمو ولكي يحصــل التكاثــر والبقاء يحتــاج الأمــر الى عقل وإدراك ، ومنهاج مرسوم مــن قبل تلك البذرة ، والبذرة لا تملك شيئاً من ذلك ، فكيف حصلت اذن ثمــرة بعينها ؟! بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة ؟! وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها ؟!
والحقيقة أن من أنعم النظر في تعبير الطبيعيين المستندين الى القابلية حينما يقولون : طبع النبات على ذلك، انتفخت الحبة، وانفلقت ، وتوالدت الخلايا، تميل الخلية الحية الى الانقسام يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهــول لجهلهم أو تجاهلهم الفاعل الحقيقي ، فكأن الطبيعي أغمض العين عن الســبب الحقيقي ، وبنى الفعل المجهول تخلصاً، فمن الذي نفخ الحبة؟ ومن الذي فلقها ، ومن الذي أدى الى التوالد ؟ ومن الذي جبل الخلية على الانقسام ؟ ومن الذي جعلها تنتفخ بــدلا

من أن تضمر ؟ كل هذا التحقيق لا تصل اليه نظرة الطبيعيين القصيرة ، بل المقتصرة على وصف الظواهر دون الذهاب الى أسبابها ، بل المخطئة في جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلا ، والقابلية مؤثراً ، والظاهرة المجهولة عاملا مكوناً ، فالانتفاخ صفة نشأت عن المؤثر الخارج عن الشيء ، وعن قبول أثره في ذلك الشيء ، والانفلاق صفة ، والامتداد صفة ....

وما زاد الطبيعي على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوماً مركباً ، سماه (قابلية التوالد والنمو) ، فجعل من القابلية التي هي عرض من أعراض الشيء سبباً في الخلق ، ومن الصفة الانفعالية التي لا تعي ولا تدرك سبباً فاعلا واعياً في تكوين الأشياء ! اذن فمن الذي ركز الطبيعة في العناصر ؟ ومن الذي نوع تلك الطبائع؟ان بذرة الأجاص، وبذرة المشمش حين توضعان في التراب تنتج كل واحدة منهما ثمرا يختلف عن الآخر ، بلونه ، وطعمه ، ورائحته ، مع أنه يسقى بماء واحد ، ومع اتفاقنا على أنه ليس للبذرة عقل، ولا لجذر الشجرة إدراك ، فكيف كان الجذر يمتص الماء ويصطفي ذرات بعينها وينضج النسغ ويسوقه الى الثمر ،

ويكون العصارة ، وينشيء الحلاوة ؟! كل ذلك يجعلنا نسأل عن السبب ، ولا نقف عند المجهـول ، ولا نكتفي بوصف الظواهر ، بل لا نصف هذه الظواهر خطأ بأنها أسباب الخلق الحقيقية . ونحن نعلم أن القابلية ليست الا صفة من صفات الشيء ، فكيف تخلقه ؟ وأن الحبة بالنسبة للنبـات جماد لا يعقل ، فكيف تنوعه ؟ واذا لاحظت أننا مجبرون بحكم هذه النظرة الى طبائع الأشياء ، أن نسأل عن حقيقة تلـك الطبيعة ، وعمن طبع الأشياء عليها ، وكيف تؤثر ؟ وهل تبدع أم تصنف وتركب ، وهل هي فاعلة بذاتها ، أم منفعلة لغيرها؟ أدركت أن الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد الى مجاهيل كثيرة ، ومن الأصل الحاسم الى الفروع التي لا تحسم الأمر ، فبينما كنا نسأل عن خالق الحبة ، وفالق النوى ، انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهلة الى صفات انفعالية ليس لها مـن القدرة على الخلق نصيب ، ولولا قصر النظر عند الطبيعيين على هذه الأسباب الغريبة المحيرة دون مسوغ ، لوجدنا الجواب شافياً منطقياً منسجما مع ما تقدم من التحقيق العلمي في الآية الكريمة التالية :

(إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأنى تؤفكون) [الأنعام : ٩٥] • وبذلك ترجع الأسباب كلها الى الخالق الأول وتعرف المجاهيل ، ويحسم الأمر •

ولكي نزيد الأمر وضوحاً ، نضرب لذلك مثلا ، محرك السيارة ، فان تحرك أجزاء المحرك،واحتراق البنزين،والقوة الدافعة في محصول الانفجار ، كل تلك الخصائص ، قابليات وطبائع،فهل تجد أن قابلية الاحتراق،وخاصة الانفجار،وقوانين الميكانيك ، هي التي خلقت المحرك وأبدعت السيارة؟لاشك أن القابلية غير ذات الشيء ، وأنها ان كانت سببا في اندفاع الظواهر ، وبروز المظاهر،فهو في حدود التركيب والتصنيف، لا في حدود الخلق والابداع ، وهي في المراحل الأخيرة ، لا في المرحلة الأولى من خلق الوجود • ولذلك اذا أرادالطبيعي الخروج من هذا المأزق ، وأقر معنا أن هذه الطبائع أسباب فرعية في مجال التكاثر والتنويع ، ولا تعدو في حقيقتها نوعية تساند الأسباب التي تكلمنا عنها في مبدأ السببية • قلنا له : رجعت إذن الى الأصل الذي بحثنا عنه من قبل وأثبتناه ،

ولم تستطع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعها ما يصح أن يكون سبباً لاخراج الوجود من العدم •

واذا أردت أن تعرف العلة النفسية في تكوين هذا الإله الزائف (الطبيعة) لدى بعض الناس ، وجدتها في السلسلة التالية :

عاين الانسان صفة الشيء ، فأضاف الصفات بعضها الى بعض ، وكون من مجموع الصفات مفهوماً ، وسمى المفهوم قابلية أو طبيعة، ومالت النفس الى الراحة والاختصار، فجعلت من تلك الطبيعة في خيالها ذاتا مستقلة فعالة • وجمد الخيال البشري على ذلك ، وتوهم صاحبه أنه وجد إله الوجود ، فأقبل عليه طائعا ، وأسلم له خاضعا ، من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن ، يصنعه ثم يتخيل أن له النفع والضر ، ثم يعبده !

وما أشد التشابه بين من كان يعبد الأصنام من قبل ويجادل عنها ، ومن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها ، فالعلة النفسية واحدة ، ونوعية الخطأ واحدة ، ألا وهي الاصطناع في أول الأمر ، وتوهم الاستقلال والتأثير في آخره ، وقد

أشار القرآن الكريم الى هذه الخدعة في آيات كريمة منها :
(ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون) [يوسف : ٤٠] .

(قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين) [الأعراف : ٧٠ ، ٧١] .

فانظر من أي ناحية ضل البشر من قبل ، ومن أي ناحية يضلون اليوم ، والقضية ليست الا أسماء يسمونها في البداية ، ثم يجادلون عنها كحقيقة واقعة في النهاية .

وخلاصة القول في الطبيعة أنها : إما قول بأن الأشياء حدثت بذاتها ، وهو قول ساقط من كل اعتبار (اذكر القاعدة الأولى) .

وإما قول بأن الصفات تخلق بالذات ، وهو أشد تداعيا

وسقوطاً من القول الأول ، لأنه اذا عجزت ذات الشيء عن خلقه ، فكيف تستطيعه الصفة ؟

واما اعتبار للقابلية على أنها سبب متأخر كبقية الأسباب، فتفتقر الى المسبب الأول وهو الذي به نقول

اذن ففي الأحوال الثلاثة لا بد من الرجوع الى الخالق الأول وتأتي الطبيعة متأخرة منفعلة له مفتقرة اليه •

وهكذا نجد أن الطبيعة إله العصر المزعوم لم تثبت أمام النقد المنطقي والشرح العلمي ، وليست بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابلياتها وقوانينها التي تجري عليها ، وأن طبائع الأشياء لاتخلقها ، ومن كان يبحث عن ذات مستقلة لها ، مبدعة فعالة ، خارجة عن نطاق الأشياء ، كان لاشك باحثاً عن عنقاء المغرب •

*

التوحيـــد

اذا كان سراب الطبيعة قد تبدد أمام ناظريك ، وأصبح أفق معرفة الخالق الأول واضحاً لديك ، أمكنك أن تستكمل معرفتك هذه بالتعرف الى صفاته التي يلزمك بها البحث ، مستندا الى الحقائق المتقدمة ، وصفاته التي تستنتج من ذلك فنقــول :

هو الأول : ليس قبله شيء ، لأن القول بشيء قبــله يجعل له حدودا ، والحدود من صفات الحوادث ، وقد فندنا ذلك من قبل (اذكر القاعدة الثانية) .

وهو الآخر : وليس بعده شيء للمحذور نفسه ، فهو اذن (الأزلي الأبدي) .

وهو الحي : الحياة المطلقة ، لأنه الواهب الحيـــاة للأحياء ، ولا يصح الا أن تكون مطلقة ، لأن النسبية مــن صفات الحوادث (اذكر القاعدة الثانية) .

وهو متصف بالارادة والمشيئة ، لأنه لو لم يرد الخلق لمــا خلق شيئاً .

وهو السميع العليم ، البصير القدير،لأن هذهالصفات لوازم صفة الحياة ، ولما كان الاطلاق صفــة لحياته ، كان الاطلاق ملازما لجميع الصفات الأخرى ، بحيث لا يعجــز السمع أو البصر أو العلم أو القدرة معجز •

وهو الواحد : الذي لا شريك له في الملك • ولما لهذه الصفة من أهمية عظيمة ، وخطورة بالغة ، نخصهابالتفصيل التالـــي :

لعلك أدركت من تسلسل البحث ، ومن ذكر الصفات المتقدمة ، ومن الجزم بكماله المطلق ، أن التوحيد حاصـــل ولا يحتاج الى برهان ، بل إن التعدد هو الذي يفتقر في الدليل ، ولكننا على الرغم من ذلك ، نعرض لأمر التوحيد بالتفصيل لعلاقته الصميمية بواقع الحياة •

القول بالتعدد ، يمكننا أن نختصره بالتثنية ، فانثبتت التثنية ، صح التعدد من غير حصر ، وان بطلت بطل التعدد أصلا ، ولزم التوحيد •

فالقول بالتثنية يلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنـــين ، لأن التساوي التام من جميع الوجـــوه باطـــل ، ولا يصح

بالتصور الا اذا انطبق الأول على الثاني تمام الانطباق ، فيبقى في النتيجة كائن واحد ، ومهما انعدمت الصفة المميزة انعدم التمييز • فان قال مكابر بإمكان التمييز بين اثنين حال التساوي التام ، قلنا له : أقمت الحجة على نفسك حينما ميزت ، وما ميزت الا بادراك صفة مميزة ، ووجود صفة مميزة ، يبطل التساوي التام ، واذا بطل التساوي التام ، حصل التفاضل بين الاثنين ، فسقط المفضول وبقي واحد •

والقوة بالتثنية من الوجهة الرياضية ، يفيد وجود اطلاقين ، وذلك محال ، لأن وجود أحدهما ينافي اطلاق الآخر ، فهو إما أن يدخل في إطلاق الأول ، فيسقط اطلاق الأول ، واما أن يخرج عن نطاق الأول ، فيسقط اطلاق الأول المفترض ، ويبقى الثاني ، أي : أن الاطلاق محيط ، ولا يحاط به ، والنتيجة أنه لم يبق الا اطلاق واحد • فلم يبق الا اله واحد •

وهذا كما أنه دليل على التوحيد ، فهو دليل على حدوث العالم ، ونفي قدمه ، لأن القول بقدمه يفيد وجود اطلاقين ، وذلك محال كما رأيت • ومن هنا نفهم المعنى العميق للآية الكريمة : (ألا له الخلق والأمر) [الأعراف : ٥٤] • أي :

أنه ليس تصريف الكون وحده حادثا فحسب ، بل الكون كله خلقاً وتصريفاً مقهور للخالق ، فهو حادث بمادته ومعناه •

واذا أردنا أن نجلي معنى هذا البرهان بالنسبة للتوحيد والتعدد، قلنا : حين وجود اثنين يترتب على أحدهما أن يحيط بالثاني قدرة وعلماً • فان عجز عن ذلك ، فهو ليس بآله، بقي واحد ، وان قدر على ذلك ، سقطت ألوهية الثاني ، وبقي واحـــد •

وبعض الفلاسفة يسمي هذا بـ : برهان التمانع فيقولون: لو كان هناك إلهان ، يريد أحدهما قيام زيد في آن ، ويريد الآخر قعوده في ذلك الآن ، فمحال نفوذ الارادتين، لاستحالة المراد ، وجمع الأضداد ، فان غلبت إرادة أحدهمـــا على الآخر ، فهذا الآخر عاجز مقهور ، فهو ليس بإلـــه ، وبقي واحـــد •

وقد أورد ذلك ابن جرير الطبري قال : « لم يخـــل كل واحد من الاثنين ••• من أن يكونا قويين ، أو عاجزين• فان كانا عاجزين ، فالعاجز مقهور ، وغير كائن إلهـــاً ، وان كانا قويين ، فإن كل واحد منهما يعجزه عن صاحبه عـــاجز •

والعاجز لا يكون إلها • فان كان كل واحد منهما قويا على صاحبه ، فهو بقوة صاحبه عليه عاجز » •

اذن لم يبق الا الواحد المطلق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وما قال من قال بالتعدد الا عن عقلية ابتدائية ، وفكرة وثنية ، وتصور خيالي مصطنع ، بعيد عن التحقيق ، مصادم للعقل •

ولم يبق في الدنيا من يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعدد ، بل إن التحقيق لايرشد إلا الى التوحيد ، بريئاً من صفات الحوادث ، كالالصاق والتفريع والولادة • فكما أن التعدد باطل ، فطروؤه من بعد أشد بطلانا وأقبح ، كما هو الأمر في بعض الديانات ، وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره، كالتثنية والتثليث وغيرهما ، على الرغم من اقامة كثير من البشر اليوم على هذه العقيدة الفاسدة بكل أسف • ولو رجعوا قليلا الى العقل والمنطق لانهدمت أمامهم هياكل الوثنية وأساطير التعدد لقوة البرهان ، وصراحة الحجة ، وثورة العقل على هذا التناقض المشين • فليت شعري متى يثور مفكرو العالم الأحرار وعقلاؤه المتجردون على هذه

الوثنية النكراء فيمزقوا غشاء العنكبوت ويقودوا العالم الى التوحيد ؟!

والقرآن الكريم الذي حمل لواء التوحيد للناس، نص على ما تقدم من تفنيد التعدد وبطلانه ، وتأكيد التوحيد وثبوته في آيات كثيرة حملت أصح بيان وأقوى برهان •

(لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون) [الأنبياء : ٢٢] • (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) [المؤمنون : ٩١،٩٢]• هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) [الحديد : ٣] •

(ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ، ألا انه بكل شيء محيط) [فصلت : ٥٤] •

« قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفواً أحد » •

وهكذا تثبت حقيقة التوحيد للخالق القديم بما لايدع مجالا للريب والتردد •

والأحرى بالعالم المحقق ، أن يدعو الناس الى ذلك ، ويفند لديهم نحلة التعدد ، ويفضح زيفها وبطلانها ، لكـي يخرجوا من الظلمات الى النور ، ومن التناقض المشين الى الانسجام المنطقي المبين • وبذلك تخرج النفس البشرية مما تعانيه من الحيـرة والتردد ، والكبت والقلـق ، والجنوح بالنتيجة الى السبل الجائرة ، والمناهج المنحرفة ، والمبادىء المضحكة المبكية ، والتي يثبت التحليل النفسي أنها ليست الا صورة مادية بهيمية ، أو وثنية عصرية،تعبر عن افلاس البشر في التماس طريق الحق في هذا العصر •

✶

أدلة القرآن

النشأة الأولى

جـاء القرآن الكريم بليغاً ، والبلاغة تقتضي الإيجاز، ولذلك دعا القرآن الى التدبر حين تلاوته (ليدبروا آياته) [ص : ٢٩] . (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) [محمد : ٢٤] . لاستجلاء المعاني ، واستنباط الأحكام . أما من لم يعتد البلاغة ، ولـم يكلف نفسه عناء التفكيـر ، وأقفل قلبه عن التدبر ، فانه يقرأ القرآن ولا يفهمه ، ويمـر بالحكم ولا يفقهه . وربما قرأ الآيـة المشتملة على سفر من المعاني دون أن يخطر على باله معنى واحـد منها . ولذلك فليست العبرة في القراءة ، ولكـن العبـرة في القارىء وما يقـرأ .

ونحن نورد هنا بعض الآيات المتصلة بالبحث ، ممـا يتعلق بالخلق والوجود ، وتدبير أحوال الكائن الحي، كأدلة على الخالق من تدبيره ، وعلى المصور من تصويره ، وعلـى عجز المخلوق وقصوره .

فمما ورد في الكتاب حول النشأة الأولى :

(أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) [الطور : ٣٥ ، ٣٦] •

وتشير الآية الأولى الى عدم امكان وجود الحادث بغير محدث ، فتلزم المرتاب بالاقرار بخالقه • وتشير الآية الثانية الى عجز المخلوق عن خلق السموات والأرض ، من بعد أن ثبت عجزه عن خلق نفسه • وبذلك تلزمه بالاقرار بخالق الوجود • وهكذا تجمل هاتان الآيتان البحث عن (السببية) الذي تكلمنا عنه في أول الرسالة •

ومماورد حول قصور الانسان عن خلق نفسه واخراجها من العدم •

(أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا؟) [مريم : ٦٧] •

(هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟) [الدهر : ١] •

(ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا) [الكهف : ٥١] •

ثم يبين له عجزه عن تدبير أمر خلقه في الرحم :

(إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) [الدهر : ٢] ٠

فبين له أنه ليس هو الذي كون النطفة (الحيوان المنوي) وأنى له ذلك وقد دقت حتى لاترى إلا بالمجهر واقتضت للحياة والتوالد شروطا حيوية غاية في الضبط والعيار ٠ ولو درست أطوار النشأة الأولى منذ ورودالأغذية من الأرض الى البدن ، واصطفائه منها بقدر ما تستلزمه النطفة ، واحالة ما اصطفي الى الأنابيب المنوية ، واشتغال تلك المراكز الحيوية بتطور تلك الخلايا الحية ، ونشوء البيضة بمثل ذلك عند الأنثى ، واجتماع النطفة بالبييضة بشروطهما الضرورية ـ كل ذلك بنظام دقيق،وعيار معلوم ، واستمرار عجيب ـ الى أن يخرج الكائن بشرا سويا (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم) [النجم : ٣٢] ٠ أقول : تجري جميع تلكالأطوار العجيبة ، والتفاعلات الحيوية الدقيقة ، في باطن الانسان دون ارادته ، وبغير تدبيره واحاطته ، بل انه لو حاول ذلك لعجز ، وكلما تأمل ازداد عجباً ، وليس دوره فيما اشتملعليه جسمه من هذه الحقائق العلمية ، والقواعد الحيوية،الا دور

المتفرج العاجز عن التدخل . وقد أشارت الى تلك الأسرار العظيمة الآيات التالية بأجلى بيان :

(نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟) [الواقعة : ٥٧: ٦٢] .

ثم يصف أطوار الخلق ومراحل الحياة في الرحم :

(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) [المؤمنون : ١٢ ، ١٤] .

(يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك) [الانفطار : ٦ ، ٨] .

(إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

هو الذي يصوركـم في الأرحام كيف يشاء) [آل عمران : ٥ ، ٦] •

وبهذا يتبين أن لا ارادة لك ولا تدبير في تحويل النطفة الى علقة ، والعلقة الى مضغة ، وتكوين العظام ، وتصنيف الأنسجة ، ونشوء الأوعية ، وتوزيع الأعصاب ، وتصويـر الصورة، بل أين أنت من تباين الأخلاط، واختلاف العصارات، ما بين اللعاب والمخاط ، والدمع والصملاخ، وعصارة الأمعاء والصفراء ، ومقادير السكر والزلال ، وتوازن الحموضـة والقلوية في الأخلاط ، الى آخر ما هنالك من دقة في خلق الأعضاء ، وضبط في عيار الأجزاء ، ممـا تعجز عنه مخابـر الكيمياء والفيزياء ، لا ريب أن ذلك تدبير من حكيم عليم : (وفي الأرض آيات للموقنين • وفي أنفسكم أفلا تبصرون) [الذاريات : ٢٠ ــ ٢١] •

ولو سألت أعلم أهل الأرض ، في عصر الذرة ــ عمن جبل المعثكلة (البانكرياس) على افراز (الأنسولين) الذي ينظم سكر الدم ، والخصية على افراز الهرمون الذي يهب صفات الذكورة ، والغدة النخامية على افراز هرمونات النمو والتكامل بحيث لو اختل افراز احداها ، لأصيب الانسان

بـداء السكر ، أو بالأنوثة بعد الذكـورة ، أو بالقزامـة (Naniame) بدل الطول الطبيعي ـ لاعترف لك ذلك العالم بالعجز ، وأقر بتدبير الخالق العظيم ، وقدرته المحيطة بكـل شيء ، وحكمته التي لا يخلو منها شيء ، وأن الأشياء مردها الى خزائن ملكه ، وبرزوها رهن ارادته على الصورة التي يريد ، والحكمة التي يشاء .

(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ومـا ننزله إلا بقدر معلوم) [الحجر : ٢١] .

(قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات،ائتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين) [الأحقاف : ٤] .

ولكي يبين لك أن تعلق الحياة في الكائن الحي راجع اليه وحده في أصغر الكائنات الحية وأعظمها ، يتحدى قدرة الانسان بالآيتين التاليتين :

(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز [الحـج : ٧٣ ـ ٧٤] .

ولعل قائلا يقول : ان الانسان صنع الصاروخ ، وفجر الذرة ، واصطنع القمر ، فجوابه : ان الخلق غير الاصطناع . فالخلق ايجاد من العدم بغير تجربة ، ولا تلفيق موادسابقة. ولهذا يعجز البشر كافة عن خلق ذبابة أو بعوضة ، واظهار سر الحياة فيها .

وقد يلتبس على الغبي ، الخلق بالاصطناع ، فيقول ما قال . وليته تذكر الآية الكريمة قبل أن تزل قدمه .

(أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) [النحل : ١٧] . إذن لأدرك الفرق العظيم . ولذلك يعجز علماء الذرة اليوم أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا ، لأن سر الحياة لا يملكه أحد من البشر .

✶

إحياء الموتى

كيف لا يعجز علماء الأرض : الأطباء ، والحكماء ، وأرباب الاختصاص ، عن نفخ الحياة في الجمادات ، وسريان الروح في الكائنات ، وكلهم مجمعون على أن سر الحياة أمر مجهول لا يعرف كنهه ولا تدرك ماهيته • بل انهم ليقفون حيارى أمام سريانه في الجامد الميت فيكون حيا • وخروجه من الحي فيكون ميتا ، ولا يعرفون الحياة في أضخم المؤلفات (البيولوجية) الحديثة الا بظواهرها ، والمقارنة بين صفات الحي وصفات الميت • حتى أضحى أمر الروح ونفخ الحياة سرا معجزا خارجا عن نطاق قدرة الانسان • والى ذلك تشير الآية الكريمة :

(إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون) [الأنعام: ٩٥] • والآية الكريمة : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) [الاسراء : ٨٥]

إن تعاقب الموت والحياة ، وظهورهما أمام أعيننا على مسرح الوجود ، في ألوف المشاهد في الحياة النباتية ، يفتح أمامنا باب النظر في أمر عودة الحياة الى الميت ، وهـذا ما أرشدنا اليه القرآن الكريم في آيات كثيرة منها :

(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير) [فصلت : ٣٩] .

(وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته،حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا بهالماء،فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) [الأعراف : ٥٧] .

وقد يقول قائل : هذا في النبات حيث يبقى الجذر أو البذر فأين يكون هذا في الانسان ؟ ونقول لهذا السائل : ثبت بالتجربة العلمية ظهور الحياة في الجماد بعد زوال جميع آثار الحياة وانعدام الجذور والبذور ، فقد أخذت الخلايا النباتية من الوجه السفلي لأوراق (التنباك) وسحقت سحقا شديدا ، وعرضت لحرارة عالية حتى فنيت الخلايا ، وزالت آثار الحياة ، وتحققت صفات الممات ، ولم يبق فيها لعودة

الحياة جذر ولا بذر ، فلما استنبتت ظهرت فيها الحياة من جديد (ان الذي أحياها لمحيي الموتى) •

وظهور الحياة في النبات ، هو عين ظهور الحياة في أي كائن حي ، من وجهة النظر العلمية ، ذلك أن العلماء اتفقوا على مبدأ وحدة الحياة لدى النبات والحيوان (L'unitevitale) فان ظهور الحياة في الكائن موقوف على تكـــون الخلية ، وانتعاشها ، وتوالدها ، ومتى اطرد فيها التوالد وجد الكائن الحي كما كان • وان عودة الحياة النباتية المشهودة راجعة إما الى انتعاش الخلايا وتوالدها وهو الأغلب ، وإما الـــى تكون الخلية من جديد ، ثم انتعاشها وتوالدها ، كمـــا في تجربة أوراق (التنباك) ، واذا كان ممكنا في النبات ، فهو ممكن في الحيوان ، لجريان (قانون وحدة الحياة) علـــى النوعين بمقياس واحد •

ولذلك نجد أحدث النظريات العلمية في نشوء الجراثيم (Les microbes) قد رجعت الى (نظريـــة التوالد الذاتي) ولكن بثوب آخر • حينما قررت أن أصل الجرثومة قبـــل أن تتكون (ذرة ببيتيدية peptides) :

ذرة مـــن الزلال تظاهرت فيها الحياة ، فكانـــت خلية

حية ، فكونت بمجموع صفاتها جرثوما معينا ، فتوالـد ، فكانت منه سلالـة جرثومية كاملة . تجـد أن حياة هـذا الحيوان قد نشأت من ذرة غذائية جامدة في شروط معينة.

واذا أردنا أن لا نذهب بعيدا،قلنا : انالنطفةوالبييضة اللتين خلق منهما الانسان ، لم يكونا شيئا ، قبل تكـون أحدهما في الأنابيب المنوية ، والأخرى في المبيض ، وهـذا يعني أن الانسان خلق من غيـر بذرة أو مادة بعينها تكون شرطا في تكوينه ، وذلك اذا لاحظنا المرحلة السابقة لتكون النطفة والبييضة كما بينا .

(أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يكشيئا) [مريم : ٦٧] .

(أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) [الواقعة : ٥٨ ، ٥٩] وهذا هو جواب من يقـول : كيف تعود للإنسان الحياة من بعد أن تفنى أجزاؤه في التـراب ؟ كما حكى ذلك عنهم في القرآن الكريم : (أولم ير الانسان أنا خلقنـاه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييهاالذي

أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) [يس : ٧٧ ــ ٧٩]•

فالذي جمع أجزاءه من التراب ووهبه الحياة وما كان شيئا مذكورا ، قادر أن يجمع أجزاءه وينشئه نشأة أخرى ، كما أنشأه أول مرة ، أما الكيفية فقد تختلف ولكنها لا ترد هذه الحقيقة الواضحة • وما أجمل هذه الجملة المعترضة في الآية المذكورة (ونسي خلقه) في تبيين الغرض • ذلك أن جاحد النشأة الأخرى لم يجحد الا حينما نسي النشأة الأولى ، ولو تذكر خلقه ، وأدرك أنه لم يكن شيئا مذكورا، لاهتدى بنظرة عفوية منطقية الى القول : الذي خلقني أول مرة يخلقني في المرة الثانية • فالعلة اذن في هذا الجحود ، الغفلة والنسيان ، أو المكابرة والعصيان ، وإلا فأين تجد عاقلا يخفى عليه أن المعمل الذي صنع السيارة أول مرة قادر على أن يصنعها مرات،والمفتاح هو المقدرة في أول مرة، فمتى حصلت كان الباب مفتوحا أبدا • فلذلك شدد القرآن الكريم على تذكر النشأة الأولى ، والقدرة المطلقة لكي لا تشكل النشأة الأخرى على الانسان : (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين • على أن نبدل أمثالكم وننشئكم

في مالا تعلمون • ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون)؟ [الواقعة : ٦٠ ، ٦٢] •

وقد أثبتنا في هذا الفصل عودة الحياة الى النبات ، والى الطبقة الدنيا من الحيوان (الجراثيم) ، وامكان عودة الحياة الى الانسان ، وفندنا القول باستحالتها ، أما حتمية هذه العودة فسيأتي الكلام عليها في فصل الحساب والعقاب •••

وعلى ضوء تجربة (اوراق التنباك)المذكورة ،والحقيقة العلمية التي تقول بتولد الجرثوم من ذرة بروتينية،وانبعاث نظرية التوالد الذاتي بهذا الثوب الجديد ، نلاحظ الأمور التالية :

١ ـ تنهدم فرضية (نشوء الحياةعلى الأرض من هبوط جراثيم من بعض الكواكب) ، فهي وان كانت فرضية مستهجنة مضحكة ، فقد قام الدليل العلمي على نقضها ، وهتك سترها ، والعجب من ولوج مثل هذا القول الى عقول المفكرين وهو في الأصل لم يرافقه أي دليل ، عدا ما يبدو عليه من السخف من أول وهلة ، فهو أشبه ما يكون بخيال الوثنيين في اصطناع آلهتهم التي يعكفون عليها •

٢ ـ قد يخيل لغير الحصيف ، أن هذه الحقيقة العلمية تؤيد قول الطبيعيين بظهور الحياة على الأرض من غير خالق ولا مدبر ، ونحن نذكر القارىء بمـا أثبتناه في (بحـث الطبيعة) من تفصيل في هذا الشأن حيث ذهبنا الى الأصول ولم نقف عند الفروع • ولو أردنا أن نعيد البحث هنا لرجعنا الى القـول :

من خلق ذرة البروتين ؟ ومن جعلها قابلة للحياة بدل الموت ؟ وما هي حقيقة الحياة ؟ ولماذا تسير ذرة البروتين في غائية حيوية مطردة ، الى أن ننتهي الى القول بأن الطبيعة ليست الا مجموعة من الأسباب تفتقر الى المسبب الأول ، ونظاما مطرداً عجيبا يدل على المنظم القادر ، وقـد توصلنا الى ذلك من قبل بما يغني عن تكراره واعادته • كما نذكر القارىء بما هو أبعد من ذلك ، حيث أثبتنا في أول الكتاب أنه لا بد لهذا العالم من خالق (القاعدة الأولى) ، فلا يصح أن يسوقنا الخيال الى نقض البرهان القطعي ، ونحن لا نلفت نظر القارىء الى كل ما تقدم الا لنعصمه من التوهم أو الزيغ عن طريق الحـق •

٣ ــ وقد تذكرنا هذه الحقيقة العلمية بفرضية (دارون) التي انزلق في غيها كثيرون دون نقد ولا تمحيص ، فان كانت فرضية الطبيعيين التي ألمعنا اليها في الفقرة السابقة لا تملك الدليل العلمي ، وتفتقر الى براهين عديدة حيال كل مرحلة من مراحلها ، فان فرضية التطور (لدارون) تحتاج بالاضافة الى ذلك ، الى اثبات تطور النوع الى نوع آخر ، وهو أمر لم يثبت في نظر العلم •

وقبل نقد هذه الفرضية وجب التعريف بها لكي يكون القارىء على بينة من الأمر في نقضها فنقول :

ان فرضية (دارون) تدعي أن الحيوانات على اختلافها، أصلها واحد،ثم تطور هذا الأصل الى فصائل حسب اختلاف البيئة والظروف المحيطة ، فكانت الحيوانات المختلفة ، ومنها الانسان ، وهي تستند في هذا الزعم الى النقاط التالية :

١ ــ تلاؤم الكائن الحي مع البيئة :

ونضرب لذلك أمثالاً :

الانسان في القطب الشمالي سمين مكتنز بالدهن ليقي نفسه من البرد ، بينما هو في منطقة الاستواء نحيل هزيل •

حيوانات الكهوف المظلمة عمياء لا بصر لها ، لأنها تعيش في الظلام فتنعدم لديها وظيفة البصر ، بينما نجد أمثالها في المناطق المكشوفة تتمتع بوظيفة البصر .

أفواه الحيوانات وأطرافها وجلودها تتلاءم مع الجو الذي تعيش فيه وتتناسب مع حاجاتها وشروط غذائها . أما الأفواه فاما مزودة بأسنان ، أو بمناقير أو بخراطيم ، أو بمناشير ، حسب الحاجة والبيئة ، وأما الأطراف فاما طويلة أو قصيرة أو ظاهرة أو باطنة ، وهي اما أيد أو أرجل ، او اجنحة ، او زعانف ، وبأصابع او غير اصابع حسب الحاجة والبيئة .

وأما الجلود فاما خشنة أو ملساء أو مشعرة أو ذات حراشف ، متناسبة مع البيئة والحاجة أيضا .

٢ ـ تشابه الكائنات الحية :

في أطرافها وأصابعها وقلوبها وأجهزتها العصبية والعضلية والعظمية والتناسلية ، والحمل والولادة ، واستعان أنصار الفرضية بالتشريح لكشف التشابه الخفي الذي لا يبدو للعيان .

كاشارته الى عضلات الأذن عند الانسان ، والزائدة الدودية ، وما يشبه الجفن الثالث الموجود عنـــد الطيور ، مدعياً أنها بقايا التطور ، لانعدام وظائفها عند الانسان •

٣ ـ تطور الجنين في الرحم :

من مرحلة العلقة الى المضغة الى الصـــورة الكاملة ، واختلاف المظاهر أثناء ذلك من مظهر الخياشيم أو الذيل أو الشعر الذي يعم البدن ، ثم اختفاء تلك المظاهـــر تدريجيا في نهاية التخلق • واستعان أنصار الفرضية أيضا بالحفريات التي كشفت لهم كما زعموا عن جماجم بشرية تشبه جماجم القرود •

٤ ـ ثـــم ادعـــى (دارون) أن الترقي حدث بحوافـــز داخلية وبدون يد خلاقة من خارج الكائن الحي •••• وها نحن أولاء ننقد تلك الفقرات فقرة فقرة ليتبين وجه الحق •

١ ـ اما تلاؤم الكائن الحي مع البيئـــة فهو تلاؤم ظاهـــر يتعلق بالجلد والشعر والأطراف والحواس وليس انقلابا في حقيقة المخلوق ولا انتقالا به من فصيلة الـــى فصيلة الا في مجال التصور والخيال ، ذلك أن تغير الحيوان من فصيلة الى أخرى مرتبط بصميم بذرته الأولى أو نطفته وقد كشف

العلم النقاب عن ذلك فأظهر أن لكل نـوع تركيبا أساسيا مميزا في خليته الأولـى يتجلى بعدد (العـرى اللونية) : Chromosomes حيث يكون لكل حيوان عدد معين لا يتغير وبه يتميز ، وما لم يتغير يكن من المستحيل تبدل النـوع الى نوع آخر ، أو انقلاب الفصيلة الى فصيلة أخرى ، وتلك حقيقة علمية لا تنازع •

ومن اطلع على هذا ، أدرك الفرق الكبير بين ما أثبته العلم من ارتباط،بين جبلة النطفة وبين خصائص النوع،وبين ما يدعيه (دارون) ، من زعم التطور الذي لم يشاهد منه الا تغير الظواهر التي لا صلة لها البتة بتغير النوع ، ان تغير الخلايا البشرية Epithelium أو الخلايا العضلية ، أو الأبعاد الظاهرة ، من طول وقصر ، ونمو وضمور ، حسب الحاجة والمحيط ، غير تغير خلايا النطف في صميمها ، والتي يرتبط بها تبدل النوع ، بل لا يمكن أن يتبدل الا بذلك ، فأين هذا من ذاك ؟ الحقيقة أن نظر (دارون) كان بعيدا عن التحقيق، قريبا من الخيال الواسع ، وربما أغرته تلك الظواهر الكثيرة من التلاؤم ، بانسجامها وتلاحقها ، لكي يقول ما قال مع أن هذه الملاحظة لم تخف على عامة الناس ، فانهم يلاحظون

أن الأقدام الحافية تغلظ خلاياها البشرية مع الزمن ، حتى تكون ما يشبه النعل دفاعا عن القدم ، وهو تغير ظاهري كما يرى كل عاقل ، لا علاقة له بصميم الخلقة،ولا بتغير النوع ، فكيف اذا أضيفت اليه تلك الحقيقة العلمية الفاصلة ، التي جعلت خصائص كل نوع مرتبطة بخصائص النطفة وعدد عراها اللونية ؟ ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين الحقيقة العلميةالتي فصلت القول،وبين التقدير النظري والافتراض الخيالي الذي أخذ بريقه بأبصار كثير ممن لم يحذقوا النقد، وينفذوا الى حقائق الأمور !

وبعد دحض هذه الشبهة علميا،يجد العاقل على عكس ما تخيل « دارون » أن هذا التلاؤم بين كل مخلوق وبيئته، وبين حواسه وتأمين حاجته ، دليل قوي على وجود الخالق الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، ونداء صارخ يدل على الخلاق العظيم ، بذلك الخلق والتدبير والانسجام ، لكي يوفر للكائن الحي أسباب البقاء والاستمرار .

٢ ـ **وأما تشابه الكائنات الحية** وتوهم انه دليل **تطورها** جميعا من أصل واحد فمردود بما يلي :

آ ــ من المتفق عليه عند الجميع أن الأحياء كلها نشأت من الأرض فأصلها جميعا الماء والتراب ، واطارها الجامع الحياة الحيوانية ، فاذا اتحدت في الأصل والمادة التي نشأت منها ، واشتركت في قوانين حيوية عامة ، هل يكون من الغرابة والعجب أن تتشابه ؟

ان العجب كل العجب ألا تتشابه . ولو أدرك ذلك (دارون) لما جنح الى الاستنتاج بأن تشابهها دليل على تطور بعضها من بعض . ان التشابه راجع الى المنبت الواحد : الماء والتراب ، والاطار الواحد : الحياة الحيوانية، كما هو ظاهر، لا الى افتراض تطور كائن من آخر بغير دليل الا بمجرد الزعم والخيال الشعري .

ب ــ ان التشابه بالصور لا يدل على تولد احداها من الأخرى إلا في خيال الرجل السطحي ، أو الفكر المحدود ، وقد ضرب بعض العلماء لذلك مثلا فقال : ان ملاحظة (العربة) والسيارة والقطار ، وما بينها من تشابه في العجلات والهياكل والمحركات ، وما يربط بينها من قوانين، تجعل الساذج الغبي يقول : ان العربة ولدت (ولادة حقيقية) السيارة، والسيارة

ولدت القطار ، فأصل المركبات واحد وقد اختلفت بالتطور الى أنواع حسب الحاجة والبيئة بذاتها وبنفسها بدون مؤثر خارجي • بينما يقول العاقل الحاذق : ان تطوير المركبات كان بمؤثر خارجي وبتدبير عاقل ، وبهندسة دقيقة أدت الى صنع مركبات مختلفة ذات أصناف متباينة ، ولم تلد احداها الأخرى حتى انه اذا لم يستطع النفوذ الى هذا التحقيق ، رأى بأم عينه وبخالص حسه أنــه من المستحيل على عربــة الخشب والحديد أن تعقل وتدبر ، وتغيــر بذاتها وتبدل ، وتنتــج أنواعا وأصنافا حسب الحاجة والطلب في غائية معينة ، وخطة مرسومة ! تماما كالخلية الحيوانية أو النباتية يستحيل عليها أن تعقل ، لكي تغير النوع وتنشىء الفصائل وتسير في غائية معينة ، وسراط لا يحيد •

جـ ـــ ان اشتراك الكائنين بنوع واحد من الأعضاء ، أو الأجهزة والأجزاء ، (كالزائدة الدودية ، والجفن الثالث ، وعضلات الأذن) لا يدل على تولد أحدهما من الآخر ، وذلك لحجتين قاطعتين :

أولاهما : أن لكل عضو من هذه الأعضاء التي ضربوها مثلا وظيفة نافعة عند الانسان ، ولم تخلق عبثا كما زعموا ،

وقد تكون وظيفة ثانوية يمكن الاستغناء عنها ، وليست أساسية لاتستمر الحياة بدونها ، والدافع إلى ذلك كمال خلق الانسان . فكلما تكامل الكائن الحي ، برزت في خلقه عناية فائقة ، حتى في الثانويات من الأمور،ولو لمحض الراحة الجسدية ، أو الصورة الجمالية ، وهذا ما ينطبق على تلك الأعضاء المضروبة مثلا ، فالزائدة الدودية لوحة بلغمية تزيد في الدفاع عن الأمعاء ، والجفن الثالث يهب نوعا من الوقاية الباطنة لموق العين ، وعضلات الأذن يمكن أن يكون لها دور هام أثناء التخلق في الرحم ، في نصب صيوان الأذن وجعله بهذه الصورة الجميلة ، بدلا من أن يكون متدليا منحرفا ، وهكذا تجد أنك كلما تتبعت عضوا من الأعضاء بالروح العلمية ، والتحري الدقيق ، وجدت الحكمة من خلقه ، قبل أن تتسرع وتجري وراء الخيال أو الاحتمال دعما للفرضية التي افترضتها ابتداء بغير برهان .

وأخراهما : أن في الرجل أعضاء أنثوية تشبه أعضاء المرأة ، وفي المرأة اعضاء ذكرية تشبه اعضاء الرجل ، فهل انقلب أحدهما عن الآخر ؟ اننا نجد في الرجل ثديين ،

ومهبلا صغيرا يدعى (المهبل الذكري Vagin Masculin)
فهل كان الرجل امرأة ؟

ونجد في المرأة عضوا يشبه عضو الذكورة عند الرجل هو (البظر Clitoris) فهل كانت المرأة رجلا ؟

والالتفات الى مثل هذه الأعضاء البارزة التي لاتحتاج الى التشريح ، أهم من الالتفات الى الجفن الثالث والزائدة الدودية ! وقد ثبت لك أنه التفات بغير جدوى ، وأن هذه الحقائق العلمية تظهر بوضوح أن الأصل الذي بني عليه (دارون) في هذا المجال باطل ، وأن مجرد وجود العضو في كائنين ، وخلوه من الوظيفة في أحدهما ليس دليلا على تطور أحدهما من الآخر •

٣ ـ **وأما تطور الجنين في الرحم** ، فاستنتاجهم من ملاحظته ، مردود بما يلي :

آ ـ ان حمل بداية خلق الانسان على تطور الجنين في الرحم ، لا يعدو التصور والاحتمال ، ولا يعطي القطع والجزم كبقية البراهين العلمية ، ذلك أنه يمكن أن تكون أسباب الخلق الداعية الى التكامل في الرحم غير الأسباب

الداعية الى الخلق في الحياة المائية الترابيـــة خصوصا وأن الفروق كثيرة وكبيرة وبادية للعيان ، فكيف يقاس الأول على الثاني والشروط والأسباب مختلفة غاية الاختلاف ؟

فأين في بداية الخلق النطفة والبيضة ، وجوف الرحم وأغشيته ، ودم الأم والحياة المتدفقة فيه ؟ أين كل هذا من ماء وتراب وجهلنا بما يحيط بهما من أسباب ، الا اذا كانت أحكامنا عليها رجما بالغيب وسعيا الى السراب !

الحقيقة أن التباين واضح ، فالقياس فاسد .

ب ــ في حالة الاصرار على هذه الصورة الخياليــة المغرية من زعم التشابه بين الحالتين ، نقول للمعاند : وهل يستنتج من ذلك عقليا ومنطقيا أكثر من أن الانسان خلــق بالتدريج ولم يخلق طفرة بصورته الحالية ؟

ان الفرق كبير جدا وخطير جدا بين قولنا : انالانسان انتقل من مرحلة الى مرحلة ، وتطور من صورة الى صورة حتى وصل الى صورته النهائية المعروفة ، وبين قولنا : ان جميع الأحياء أصلها واحد ، وقد انحدر بعضها من بعض في مراحل التطور ومن جملتها الانسان .

ان ملاحظة التطور في الرحم لا تلقى في الذهن أكثـر من الاحتمال الأول على سبيل الافتراض والتصور ، وليس فيها قطعا ما يدل على اتصال جميع السلالات بأصل واحد • فالاستنتاج الثاني الذي زعمه (داروين) وأنصاره لا سند له في هذا الاستدال كما هو واضح •

وان أصر أناس على الاستنتاج الأول ورأوا فيه صورة خيالية لا تطاوعهم أنفسهم للاعراض عنها ، قلنا لهم: إن ذلك ممكن ، وان لم يكن لدينا البرهان العلمي القطعي على اثباته ولا الدليل التاريخي الجازم ، ولكن العقل لا يحيل أن تكون بداية خلق الانسان قد مرت بأطوار ومراحل عديدة وزمن لا نستطيع تحديده حتى وصلت الى الصورة البشرية الكاملة (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) [التين : ٤] •

وليس في الدين ما يمنع من ملاحظـة الأسباب ، وأن الخالق فطر الكون على الأسباب، والمؤمن لا يفر من الأسباب ظنا أنها تنازع الخلاق العظيم، لأنه يدرك بوضوح أن الأسباب هي من صنعه وتدبيره ، ومقهورة لحكمه ، وفي دائرة ملكه، وقد جعلها مجال الخلق والتصوير ، لذلك فالمؤمن الـذي يلاحظ ذلك ، لا يستعصي عليه ــ علـى سبيل الاحتمال لا

القطع ـ أن يتصور تساند الأسباب الطبيعية في بداية الخلق، وتتابع المراحل ، حتى تسير بالمخلوق البشري الى صورته الانسانية الكاملة ، ولكن ذلك كله لا صلة له البتة بأصناف الأحياء الأخرى ، لاستحالة انقلاب النوع ، وتبدل الجنس، ولعدم قيام أي دليل على ذلك ، فالزعم مردود بالدليل الايجابي ـ استحالة انقلاب النوع ـ وبالدليل السلبي ـ عدم الدليل في الرحم وغيره على انقلاب السلالة ، أو تطور الفصيلة ـ أما تطورات الأشكال والظواهر فلا تغني شيئا وليست تبدلا في النوع كما أسلفنا وغاية ما يمكن أن يستنتجه المصر على رأيه في هذا المجال ـ المجال الرحمي ـ هي أن بقية الأحياء سار كل صنف منها في طريق التطور منذ بداية بذرته الأولى حتى وصل الى مرحلة من الخلق قررت شكله ونوعه ، فان طرأ عليه تغيير في المستقبل فهو في حدود الظواهر فقط تبعا للحاجة والظروف المحيطة بالكائن الحي ، كما بينا من قبل .

ونحن لا نستبعد أن يكون (دارون) قد اطلع على وصف تكوين الجنين في الرحم كما وصفه القرآن الكريم : (فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من

مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء)
[الحج : ٥] •

واطلع على ما رواه بعض المفسرين حول قوله تعالى :
(هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)
[الدهر : ١] •

وغيرها من الآيات •

وأن آدم لبث أزمانا طويلة بين الماء والتراب،فصورت له هاتان الملاحظتان القول بالتطور ، فأضاف اليها ملاحظته عن الحيوان ، فشكل من مجموع ذلك فرضية التطور وألقاها الى الناس ، فأخطأ وأصاب ، إنه أصاب بانبعاث جميع الأحياء من الماء والتراب وهذا الذي جاء به القرآن منذ قديم الأزمان (والله خلق كل دابة من ماء) [النور : ٤٥] وخطر له على سبيل الاحتمال بتطور الكائن البشري الأول وسيره في عدة مراحل حتى وصل الى الصورة البشرية الكاملة ولكنه أخطأ في زعمه أن جميع الأحياء أصلها واحد وتطورت من خلية واحدة ، فلا دليل له على ذلك ، والدليل العلمي يناهضه ويرد زعمه •

وأما ما ذكره في هذا الصدد من العثور على جماجم بشرية تشبه جماجم القرود ، فمردود لعدة احتمالات :

آ ــ يحتمل أن تكون تلك الجماجم جماجم قرود حقيقة ، وفصائل القرود كثيرة ومنها أنواع قريبة الشبه بالانسان تشريحيا ، ومعالم التشريح في العظام دقيقة جدا بحيث يعسر التفريق خصوصا بعد تقادم الزمن وتأثر العظام بالأرض .

ب ــ ان الأزمنة المفترضة عند (دارو ن) لتحقيق فرضيته بتطور الفصائل والأنواع بعضها الى بعض ، أزمنة متطاولة بعيدة جدا ، وفي هذه الحال تصبح تلك الجماجم المزعومة والتي تشكل حلقة متوسطة ــ بافتراضه ــ رميما لا يدرك مهما كان نوع التربة التي دفنت فيها ، فأين يقوم مثل هذا الزعم والتصور ؟

ج ــ لقد سبق أن بينا أن مجرد التشابه ليس دليلا علميا على انبعاث نوع من نوع ، وتولد فصيلة من فصيلة، وأنه استنتاج فاسد .

د ــ إن كثيراً من نتائج الحفريات التي نشرت على

العالم ـ عدا أنها لا تتمتع بالصفة العلمية والضبط الدقيق ـ أثبت الواقع خطأها وتراجع أصحابها عن الأحكام التي بنوها عليها مما يتعلق بتاريخ وجودها ، وتحديد صفات كائناتها ، وكان الفرق عظيما بين التحديد الزمني الذي يدعونه وما يتبعه من نتائج ترتبط بقضية التطور ، وبين التاريخ الحقيقي الذي اكتشف بقرائن أخرى فيما بعد ، لذلك فالعلم القطعي غير الظن والتخمين •

٤ ـ **واما قضية الحوافز الداخلية** التي استند اليها « دارون » ليستمر في فرضيته ، والتي لولا افتراضها ، لا يمكن أن تطرد الفرضية أو تقوم على قدميها ، فهي القضية التي فضحت الفرضية ، وقوضت بنيانها ، وما نحسب أن المعاند مهما عاند وتعلق بالخيال والاحتمال يستطيع أن يتعلل بالباطل والمحال ! قيل « لدارون » : كيف حدث الترقي في الكائنات الحية ؟ ولماذا حدث ؟ ولماذا بقيت أنواع وبادت أنواع ؟

فزعم أن الترقي حدث (بحوافز داخلية) وأن البقاء كان للاصلح والأقوى نتيجة صراع دائم بين الأحياء • فانظر الى الأخطاء المتلاحقة :

آ ـ انه افترض حوافز داخلية (بدون دليل) ولو أن

حق الافتراض بدون دليل أمر سائغ علميا،لصحت كل نظرية في العالم ، حينما ينحت لها صاحبها حجر الأساس الذي يريده ويفرضه على الناس فيبني عليه القصور الشامخة ولكن ذلك البنيان الشامخ سرعان ما ينهار بانهيار أساسه المفترض لأنه افتراض بغير حق •

ب ــ ان الحوافز الداخلية في حال تصورها ، لايملكها الا العاقل المدرك ، حيث يبعد النظــر ، ويرسم للمستقبل ، ويصطفي ويطرح ، وأنى هذا للخلية التي لا تعقل ولا تدرك؟ وقد بينا ذلك حين الكلام على جذر النبات وعمل الخلية ، وأوضحنا ثمة أن ذلك الاصطفاء الهادف ، والاتقان الدقيق، دليل على اليد الهادية الخلاقة المبدعة المصــورة التي تسير بالخلايا نحو أهداف معينة بها يعمر الكون : من ذلك تسليح بعض البذور بأجنحة لتطير في الهواء فتقطع آلاف الأميــال لتجد الماء فيبقى النوع • ومن ذلك تسليح بعض البعوض بأكياس هوائية لتطفو على الماء ولا تغرق ليبقى النوع ، فهل للبذور والبعوض عقل يدرك ، ودماغ يفكر ، والمام بقانون (أرخميدس) ؟

ومثل هذه الحوادث الحيوية كثير جدا يفوق الحصر ، في مجال النباتات ، والحيوانات من الأسماك والطيور والنمل والنحل ، مما يعجز التصور عن الاحاطة به ، ويفرض وجود اليد الخلاقة المبدعة ، وأنه تدبير من عليم حكيم •

جـ ــ لو أن زعم الترقي بالحوافز والصراع لبقاء الأقوى، صحيــح •

فلماذا ينشأ الحصان من الحمار ، مع أن الحمار أكثر جلدا وأشد احتمالا ؟

ولماذا ينشأ الغزال من الوعل ، مــع أن الوعل أقوى وأشد ،

ولماذا ينشأ الفراش الرقيق الجميل، من الزنبور القوي الغليظ ؟

ولماذا تنشأ العصافير والبلابل ، من النسور والصقور؟
ولماذا ينشأ الانسان الضعيف بجسمه ، من الحيوان الأقوى جسما والأشد خلقا ؟

ان طفل الانسان البالغ من العمر شــهرا لا يستطيع الزحف على الأرض • بينما يستطيع المهر البالــغ شهرا من

العمر أن يمشي عشرات الكيلو متـرات وراء أمه ؟ فأيـن تمسي هنا حقيقة التطور والترقي بالحوافـز الداخلية وزعم البقاء للاقوى ؟!

الحقيقة أن مثل هذه الحقائق العلمية الواقعية تنسف، زعم البقاء للاقوى ، وزعم الحوافز ، من الأصل ، وبذلك تنقض بنيان فرضية (داروين) من الأساس ، لأنه مستحيل على الفرضية أن تستمر أو يكون لها هيكل بدون الاستناد الى افتراض الحوافز وزعم البقاء للاقوى ؟!

ومن دقق النظر في هذه الظواهر الحياتية للكائنـات الحية يدرك بوضوح أنه ابداع من خلاق عظيم عليم تجلى في غائية الجمال في خلق الغزال والفراش والطيور والزهور في ألوانها وأشكالها وتغريدها وأريجها ، مما ليس له علاقة بالقوة والغلظة والغلبة،بل مما يعاكس تلك النظرة ويصادمها ، وتجلى في غائية تنويع المخلوقات منذ البداية من نبات وحيوان وانسان ، ليتكامل العالم في صورته ومعناه ، وتجلى في غائية الخدمة وتسخير الكائنـات بعضها لبعض ليعمـر الكون ، بتدبير هادف من عزيز عليم ، وحكمة بالغة من عليم حكيم ،

ولعل ذلك يذكرنا بالآية الكريمة : (ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا) [الزخرف : ٣٢] والآية الكريمة : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) [النحل : ٨] • (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) [الذاريات : ٤٩] •

د ـ ان افتراض الحوافز كان عند (دارون) هربا من حقيقة جاثمة على الكون بارزة في العقول بروز الشمس ألا وهي الإقرار بخالق الوجود تلك الحقيقة التي قدمنا البحث عنها في البداية (اذكر القاعدة الأولى) فتجاوز (دارون) اياها أوقعه في خطيئتين ، غفلته عنها وافتراض الحوافز • والخلاصة من هذا النقد لفرضية (دارون) نجملها في ما يلي :

١ ـ من المتفق عليه أن جميع الأحياء نشأت من الماء والتراب ونبتت من الأرض بتفصيل يتضح لنا حينا ، ويخفى علينا بعضه حينا آخر ، ولنذكر الآيات الكريمة التالية :

(والله أنبتكم من الأرض نباتاً) [نوح : ١٧] •

(والله خلق كل دابة من ماء) [النور : ٤٥] •

(إني خالق بشراً من صلصال من حماٍ مسنون)[الحجر: ٢٨] • (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) [المؤمنون: ١٢] (وجعلنا من الماء كـــل شيء حي) [الأنبياء : ٣٠] •

٢ ـ أخطأ (دارون) في ظنه أن التلاؤم الظاهري مع البيئة دليل على الانقلاب الصميمي في أصـــل الخلقة ، فقد ثبت علمياً أن النوع الاينقلب إلى نوع آخر إلا بانقــلاب تركيب النطفة وتغيير عدد عراها اللونية التي تعين النوع ، أما التغيرات الخلوية الظاهرية فلا علاقة لها بتغيير النـــوع البتـــة •

٣ ـ أخطأ (دارون) في زعمه أن التشابه في الكائنات الحية دليل انحدار بعضها من بعض (فالعربات) المتشابهة ببعض المظاهر والأجزاء ، لم يلد بعضها بعضا • وانما هي يد الخلاق العليم ينوع في خلقه فيتشابه الخلق حينا ويختلف حينا آخر (يزيد في الخلق ما يشاء) [فاطر : ١] • وكـــل زمرة من المخلوقات تجتمع في اطار واحد لا بد أن تتشابه في بعض الصفات •

٤ ـ أخطأ (دارون) في بناء فرضيته على ملاحظة تطور

الجنين في الرحم للفروق الكبيرة بين المقيس والمقيس عليه، ولأن مثل ذلك لا يدل على أن أصل جميع الأحيـاء واحد فالموضوعان منفصلان وغاية ما يقال على سبيل الاحتمال أنه من الممكن أن يكون خلق الانسان الأول قد مر بمراحل من التطور لا نستطيع تحديد مدتها كالمراحل التي يمر بها في الرحم اليوم والفارق أن الرحم حينذاك كان بقعة من الأرض هيأ فيها الخالق المدبر المالك للاسباب المعين للهدف ، الشروط الضرورية اللازمة لتكون ذلك الحي ووصوله الى أحسن تقويم ، وأن كل بذرة من بذور الأحياء الأخرى سارت أيضا في طريق التطور حتى وصلت الى تحديد نوعها كل بمعزل عن الأخرى .

٥ ـ أخطأ (دارون) في افتراضه (الحوافز الحياتية، وبقاء الأقوى) فليس له حق الافتراض ، والحوافز الهادفة لا تعيها الخلية ، إذ لا تعقل ولا تدرك وأثبت العلم والواقع أنه لم يكن البقاء للاقوى فقط ، بل كان البقاء والاستمرار أيضا للاضعف والأجمل والتنـوع المقصود الذي تتـم به صورة الحياة ومعناها . والحقيقة أن مجرد نقض افتراض

(الحوافز الداخلية) التي تفتقر اليها الفرضية ، كاف لنقض الفرضية ذاتها من الأساس .

وما كان ليكتب لهذه الفرضية الذيوع والانتشار ، لولا ولوع هذا الجيل بكل جديد ولو لم يكن صحيحا . والنفرة من كل قديم ولو كان سديدا رشيدا ، حتى نشأ في المجتمع مفهوم (الرجعية) و (التقدمية) ، وأصبح الشاب يجبن أحيانا عن قول الحق خوفا من وصمة (الرجعية) أو ينزلق في الباطل ، تقليدا أعمى ، ليوصف (بالتقدمية) ، دون نقد نزيه ، أو نظر مجرد !

وبعد أن عرضنا لتنفيد الزعم بأن الحياة نشأت على الأرض من جراثيم هبطت من الكواكب ، وكشفنا بطلان فرضية (دارون) ، وأزلنا الغشاوة عن عين من يتوهم من النظر في تجربة أوراق (التنباك) وما يشبهها أن الحياة يمكن أن تنشأ بغير خالق ، فما يستفاد اذن من تلك الحقيقة العلمية العظيمة أصبح دليلا واضحا ، وبرهانا قاطعا على امكان عودة الحياة الى الميت ، وهو الأمر الذي كان ينكره الجاحدون ، ويتمسك به الجاهلون ، ويتعللون به للقول بالنفاد ، واستحالة عودة الحياة ، فنقضت هذه الحقيقة مزاعمهم ، وردتهم على أعقابهم خاسرين .

المصادفة

يلعب القول بالمصادفة دورا عند بعض من يتكلم في حقيقة الوجود ، ولذلك نجد لزاما علينا أن نتعرض لحقيقة المصادفة في هذا البحث ، لنرى نصيب هذا القول من الحق عند الذين يقولون : وجد العالم مصادفة ، وانتظمت الأفلاك مصادفة ، وجرت الأمور الحيوية والغريزية في حسابها الدقيق مصادفة . وان كان العقل يرى بالبداهة أن مثل هذا القول أقرب الى الخيال الصبياني منه الى التحقيق العلمي .

يقول العلماء والفلاسفة : لا وجود ــ في الحقيقة ــ للمصادفة ، وانما يقول بها الانسان اذا جهل السبب حتى اذا عرف السبب ، أنكر أن يسميها مصادفة ، وسماها باسمها الذي يفسره السبب ، ولذلك تجد التعليل بالمصادفة أكثر ما تجده لدى الأطفال ، وعند الشعوب الابتدائية، والطبقات الجاهلة ، أما العالم فانه دائما يبحث عن السبب ، وينشد الحكمة ، ولا يتغافل عن دقة النظام وقوة الإحكام .

ضرب أحد العلماء مثلا لنصيب الاحتمال في الأمر المحكم،

والنسق المنتظم ، ليرد بذلك على من يسند نظــام الوجود الدقيق الى المصادفة ، قال : لو وضعت عشر قطع معدنية في جيبك ، وجعلتها مرقومة من الواحد الى العشرة وحاولت أن تخرجها مرتبة بحيث لاتخطىء في تقديم عدد ولا تأخيره لكان بالحساب احتمال خروج الرقم الذي تريده ، كالواحد مثلا هو عشرا ($\frac{١}{١٠}$) ولكي يخرج هذا الرقم في دوره سوف يكون له احتمال $\frac{١}{١٠}$ مع كل من الأرقام العشرة فيكون الاحتمال $\frac{١}{١٠٠}$ ،فلخروج قطع النقود العشرة بغير خطأ يكون الاحتمال :

$$\frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} = \frac{١}{١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$$

أي : يكون الاحتمال : واحدا من عشرة مليارات •

وبهذا يتبين لــك واضحا من حساب الاحتمالات أن المصادفة في ظهور الأرقام العشرة مرتبة ، هو احتمال واحد،

من عشرة مليارات من الاحتمالات ، أي : اننا يمكــن أن نخطىء في هذه التجربة عشرة آلاف مليون مرة الا واحدة لكي نخرجها مرتبة دون خطأ •

إذا عرفت هذا ، وعرفت أن النطفة والبييضة تشتمل كل منهما في بنيتها على أجزاء صغيرة تسمى (العرى الملونة Chromosomes) لها عدد ثابت في كل نوع ، من انسان أو حيوان ، بها يختلف النوع ، ويتميز الجنس ، وهي حقيقة علمية لا تقبل الجدل ، وعلمت أنه يوجد في كل بقعة مــن الأرض في كل لحظة ملايين التوالد المبني على عدد العرى اللونية الثابت ، وأن هذه الأعداد تتكرر ثابتة لدى كل كائن حي على وجه الأرض ، لا تخطىء أبدا ، أيقنت أنه لا مكان للمصادفة في ذلك ، بل تخجل حينئذ من القول بالمصادفة ، وتوقن أنه تقدير العزيز العليم •

واذا كانت القاعدة الرياضية في حساب الاحتمالات ، أو (قانون المصادفات) تقول : (إن حظ المصادفة يتناسب عكسا مع عدد الاحتمالات المتزاحمة) •

فماذا بقي لحظ المصادفة بالنسبة لأعداد لا تتناهى ،

وأرقام لا تحصى ؟ بل أي الملايين تساعدنا على احصاء عدد التوالد لدى نوع من الكائنات الحية ، حتى نستطيع النظر بعد ذلك في نجاح كل عدد منها في حساب الاحتمالات ؟! أي : انه اذا كان الاحتمال بالنسبة لعشرة أرقام ، واحدا من عشرة مليارات ، فما عسى أن يكون الاحتمال بالنسبة لملايين الأرقام ، من ملايين الحوادث ، تتعاقب ليل نهار ، وتجري بنظام واحد لا يخطيء ، وحساب دقيق لا يحيد ؟!

وهذا كله بالنسبة لحادثة حيوية واحدة ، فما بالك بالحوادث الحيوية ، والقوانين الغريزية ، وشروط الحياة الضرورية ، في عالم النبات والحيوان والانسان وما هو شأن قوانين الماء ، والهواء ، والسحاب في عالم الفيزياء والكيمياء ، وقوانين الجاذبية ، والشروق والغروب في عالم الفلك والكواكب .

ولو أن عدد العرى اللونية زاد أو نقص ، لا نقلب الانسان حيوانا ، والحيوان انسانا فتلد المرأة كلبا ، ويلد الكلب طيرا ، وينتج الطير سلحفاة الى آخر ما هنالك من خبط واضطراب .

(ويصبح العالم مضحكا بعد أن كان نظاما مدهشا) .

ولو أن نسبة الأوكسجين والآزوت اختلفت في الهواء، لرأيت الحرائق تعم الأرض ، وتقضي على الحياة أو يستحيل الاشتعال فتفسد المعايش !

ولو أن نسبة الهيدروجين والأوكسجين اختلفت في الماء، لما كان صالحا للشرب ، ولقتل الناس العطش !

ولو أن قانون الجاذبية غير ما هو عليه اليوم ، لما استطاع الانسان أن يستقر في الأرض ، ولاستحالت الحياة ولو اختلفت قوة التجاذب بين الأرض والقمر لاختلف المد والجذر ، وغمرت البحار اليابسة ، وقضت على الأحياء جملة واحدة وهكذا يتسلسل الخطأ الى غير نهاية، ويتعدد الفساد في صور لا تنسجم مع الحياة ، ولكن إتقان أمر هذا الوجود كان بعيدا ــ كما ترى ــ عن خلط المصادفة ، وخطأ الاحتمال .

وهذا هو الفرق بين تقدير العزيز العليم ، وخطأ المصادفة الجسيم كما أشارت اليه الآيات الكريمة : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) [النمل : ٨] . (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) [البقرة : ١٣٨] . (أفرأيتم ما تحرثون .

أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون • إنا لمغرمون • بل نحن محرومون • أفرأيتم الماء الذي تشربون • أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون • لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون • أفرأيتم النار التي تورون • أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون• نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين • فسبح باسم ربك العظيم) [الواقعة : ٦٣ ، ٧٤] •

ولذلك وجدنا القرآن الكريم يصف العوالم المختلفة التي ذكرنا ، ويلح على ما فيها من نظام واتقان ، ليطرد من الخيال ظن المصادفة ، وزيف الاحتمال ، كما ورد في آيات كثيرة منها : (ان في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون) [البقرة : ١٦٤]•

وهكذا تجد أن القول بالمصادفة ، بالنسبة لنظام الوجود الشامل المحكم ، وشروط الحياة الدقيقة والاتقان

العجيب الهادف لا يقول به الا جاهل ، بعيد عن التحقيق ، أو مكابر يرى الحق ويعرض عنه ، وانه يكفي التأمل في بعض آيات الوجود بالطريقة العلمية حتى تزول (المصادفة) وأوهامها ، وتحل محلها الأحكام المعللة بأسبابها •

ويظهر الحق لذي عينين : (سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [فصلت : ٥٣] •

*

يوم الحساب

لا بد أنك بعدما تقدم من التمحيص والتحقيق في أمر الوجود ، قد رفضت الريبية ، وابتعدت عن السفسطائية ، فأقررت بالوجود والموجود ، والخالق والمخلوق ، وأيقنت بتأثير المحسوسات ، فميزت بين النفع والضر ، واللذة والألم ، فحرصت على ما ينفعك وتحاشيت ما يضرك ـ مع تقدير العواقب والنظر الى مصلحتك ومصلحة غيرك ـ ، وسلكت لذلك سبيلا ، وأردت من غيرك أن يسلكه معك ، فان استجاب لك ، سميت فعله عدلا ،وان أبى عليك ،سميت فعله ظلما ، فنشأ عندك الأساس الأول للاخلاق ! وهو التمييز بين العدل والظلم ، فالعدل:ألا تجر ضررا على نفسك ولا على غيرك ، والظلم : تعمد أحدهما ، والضرر : مايؤذي النفس مادة ومعنى ، والنفع : ما يؤنس النفس مادة ومعنى، ومن العدل نشأ الصدق ، والأمانة ، والوفاء ... في جانب، ومن الظلم نشأ الكذب ، والخيانة ، والغدر ... في جانب آخر . وهكذا تنشأ الأخلاق ، ويتولد مفهوم الخير والشر ،

ويكون الاقرار بحقيقة الخير والشر لزاما، والخضوع لقواعد الأخلاق حتما ، مع الاقرار بالنسبية في الفروع ، وأثر تفاوت الزمان والمكان دون أن يطغى ذلك على الأصول ، والفرق واضح بين ثبوت هذه الأصول التي لا يقوم بدونها مجتمع انساني قط ، وبين النسبية ، ومن لم يميز الفرق ، خلط بين الأمرين ، وادعى النسبية المطلقة في الأخلاق ، وهو لم يعلم أن النسبية المطلقة أساسها الريبية المطلقة ، فظنه مردود من جهتين : الجهة الأولى غفلته عن الفرق بين الأصول التي لا تنالها النسبية والفروع التي تخضع للنسبية ، والجهة الثانية فساد الريبية المطلقة الذي ذكرناه من قبل • على أن من هؤلاء من يخلط بين الأصول الثابتة ، والفروع النسبية لكي يتفلت من التبعة ، ويفر من التكليف ، فيوهم نفسه وغيره أن لا خير ولا شر ، ولا فضيلة ولا رذيلة ، ولذلك تجده حينما تبادره : أن افعل الخير أو اترك الشر ، تفتر شفتاه عن ابتسامة السخر ، ويجيب اجابة الفيلسوف ، ظنا وخيالا : أي خير ؟ وأي شر ؟ فانظر الى دقة الخدعة النفسية ، وخطر الضلال الفكري ، والنتائج السيئة البعيدة لفلسفة خاطئة ومغالطة فكرية جائرة •

ومن طريف ما ذكر حول ضرورة العدل لقيام حياة اجتماعية ما قاله بعضهم : « لو أن لصوصا سرقوا متاعا ، لاحتاجوا الى من يقيم العدل بينهم في قسمة المتاع ، والا انقض بعضهم على بعض ، وانفرط عقدهم » .

فالعدل ميزان ضروري ، لا تقوم بدونه حياة اجتماعية ، توزن به شؤون الناس كافة ، وعلى هذا الوزن تقوم الروابط بينهم ، وهو مفهوم ارتضاه الانسان لنفسه ، لكي لا يلحق به ضرر ، فوجب أن يعامل به غيره ، وبذلك تستقيم الحياة بين الناس .

واذا ثبت عندك ميزان العدل ، وثبت عندك وقوع كثير من الجرائم ، لم تصل اليها يد العدالة : من قتيل ، وجريح ، ومسلوب ، ومنكوب ، في حدود حياة الأفراد ، ومجاعة أليمة ، ومجزرة رهيبة ، وكرامة ضائعة في حدود حياة الأمم ، كل ذلك بين يدي الخالق الأعظم ، السميع العليم ، العدل البصير ، قلت :

أين ضاعت حقوق الأفراد ؟ وكيف هدرت حقوق الأمم ؟

أيرضى الخالق بالظلم ! أيعجز الخالق عن دفعه ؟

ان من رضي بالظلم ظالم ، ومن لم يقدر على دفعه عاجز ، والصفتان في جانب الكامل المطلق مستحيلتان . (اذكر القاعدة الثانية) فهو لا يرضى بالظلم ، ولا يعجز عن دفعه .

ومن هنا ، من ملاحظة وقوع المظالم ، دون تعجيل العقوبة مع الاقرار بعلم الخالق ، وقدرته ، وعدله ، تحتم الاعتقاد بوقوع الجزاء في عالم آخر لا محالة ، ليؤخذ الحق من الظالم للمظلوم .

ولكن بعض الناس ، اذ لاحظوا وقوع الجريمة دون تعجيل العقوبة ، ظهر لهم ذلك بمظهر العبث في الحياة الدنيا ، فضلوا عن الحق ، وجحدوا يوم الحساب ، وما ذلك الا لأنهم عالجوا هذا الأمر معالجة جانبية ، ولم يحيطوا بأطراف الموضوع من كل جانب . ولو أنهم نظروا في أمر الخلق والخالق أولا ، وثبت لديهم من الأمر ما ثبت لدينا ، لما استعجلوا في الحكم ، ولرأوا أن مظهر المظالم المتقدم الخالي من العقوبة ، أعظم برهان على يوم الحساب ولزوم العقاب ، انسجاما مع الاعتقاد بعدالة الخالق ، وعلمه وقدرته ، وكثير من الخطأ في الأحكام يقع حين النظر في الفروع دون الأصول ، وحين الاقتصار على جانب دون بقية

الجوانب ، وبخاصة عند أدعياء العلم والفلسفة حينما يصيبهم النزق لاستعجال العقوبة ، والعجب من الامهال !

اذن فالانتقام من الظالم ، وأخذ الحق للمظلوم واقعان حتما لزاما ، والا نقضنا جميع ما قادنا اليه المنطق ، وأرشدنا اليه العقل ، وتعمدنا ركوب الخطأ ، (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) [النحل : ٩٢] فالأمر لابد أن تنجزه العدالة الالهية .

ولما كان ظالم ومظلوم ، قد غادرا هذا الوجود . دون أن يؤخذ الحق من أحدهما للآخر ، فالمحتوم إذن حسابهما في عالم آخر لا مناص من ذلك ولا خلاص ، وأما قيام ذلك العالم الآخر بالنسبة للذي أنشأه أول مرة ، فممكن وهين .

كما أشارت اليه بعض الآيات مبينة هذا الامكان ، بالاستناد الى النشأة الأولى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) [الروم : ٣٧] .

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير) [العنكبوت : ٢٠] .

اذن فالنشأة الآخرة ممكنة من حيث القدرة ، لأن نفي امكانها نفي للنشأة الأولى التي نحيا بها ، والصاق العجز بقدرة الخالق ، الأمر الذي فندناه (القاعدة الثانية). (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) [الواقعة : ٦٣] . وهي مصير حتمي من حيث العدالة ، لنفي الظلم عن الكامل المطلق ، واعادة الحقوق الى أصحابها ، اذن فالامكان متوفر ، والضرورة ملزمة ، فلا بد من يوم الحساب .

ولقد نعى القرآن الكريم على ذوي الأفهام القاصرة قصورهم عن ادراك هذا المعنى ، حيث نسبوا الى الخالق الأعظم العجز والظلم ، فخاطبهم بهذه الآية الكريمة :

(أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم في لبس من خلق جديد) [ق : ١٥] . فان اعتقدوا الإعياء نسبوا اليه العجز ، وان شكوا في الخلق الجديد ، نسبوا اليه الظلم .

واستمع الآن الى بعض ما ورد في القرآن الكريم من الآيات معللة انبعاث الخلق ، لاحقاق الحق ، ودفع الظلم ، فيثاب طائع ، ويدان عاص .

(يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيـــداً) [آل عمران : ٣٠] •

(يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) [النحل : ١١١] • (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلــم اليوم ، إن الله سريــع الحساب) [غافر : ١٧] •

(فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) [يس : ٥٤] •

ولكي يتحقق الثواب والعقاب ، بالمعنى الكامل،وجب أن يكون ذلك العالم حقيقيا بالمعنى الكامل ، يتمتع فيه الناس بجميع خصائص الحياة ، وألا يكون ضربا من الوهم والخيال، كما قد يتوهمه بعض الناظرين في هذا الأمر ، وبذلك يكون الحساب دقيقاً عدلاً ، وهو اللائق بكمال الخــالق الأعظم ، بحيث لا تضيع ذرة من خير أو شر ، كما أشارت الى ذلــك الآيات التالية :

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس

شيئاً ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بهـا وكفى بنا حاسبين) [الأنبياء : ٤٧] (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره• ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) [الزلزلة : ٧ ، ٨] •

واذا اعتقدت بهذا ، زال من خيالك ظن القاصرين ، الذين ظنوا الخلق عبثا ، والوجود لعبا كما نعته عليهم الآيات الكريمـة :

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبـين) [الأنبياء : ١٦] •

(وما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) [الدخان : ٣٩] •

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون) [المؤمنون : ١١٥] •

ومن هنا تجِد أن (المادية الجدلية Dialectipuc) كما سقطت أول مرة ، حينما تجاهلت السبب الأول ، وقالـت بقدم العالم ، فقد سقطـت في المرة الثانية ، حينمـا جهلت المصير النهائي ، وجحدت العالم الآخر • والحقيقة أنهاوقعت بين إفراط وتفريط،فهي قد بالغت بالنسبة لهذا العامالحادث، فقالت بقدمه دون دليل ، بل مصادمة للدليل ، وفي الوقـت

نفسه أغمضت العين عن ذلك العالم الذي يلزم الدليل بالمصير اليه ، وهي بين طرفي هذا الافراط والتفريط ، قد جعلت الحياة دون مغزى ، فكأنها ضرب من العبث واللعب ، تلك سقطة ثالثة .

وحين يسلم العاقل بالمصير الى يوم الحساب، وحصول العقاب والثواب ، يقينا بقدرة الخالق، وتحقيقا لعدله المحتوم، فانه قد تعرض له شبهة ، طالما تتردد على بعض الألسن في هذا العصر ، فيقولون : ان الخالق العظيم الرحيم لا يليق بعظمته ورحمته أن يعذبنا ويصلينا النار ، ويجدون أن ايقاع العذاب أمر خيالي ، ودعوى باطلة تتعارض مع الرحمة ، ونقول :

ان التورط في هذا الحكم يؤدي الى التسوية بين العالم والجهول ، والمجتهد والكسول ، والطائع والعاصي، والظالم والمظلوم ، والتسوية بين هذين الطرفين المتناقضين ، ظلم ، فاذا نسبنا هذه التسوية الى الخالق ، نسبنا اليه الظلم في أبشع صوره ، وذلك مستحيل ، (اذكر القاعدة الثانية) واذا رضي بذلك الظالم ، أفيرضى المظلوم ؟ واذا ساغ ذلك عند الجاهل ، أفيسوغ لدى العاقل ؟ وتصور أنك أنت

المقتول ظلما وعدوانا ، فجزاك الخالق بهدر دمك ، والعفو عن قاتلك ، والتسوية بينهما •

افترضى أن ترغم على ضياع حقك ؟ أو تسكن نفسك للايمان بمثل هذا الخالق ؟ أو تستطيع أن تصف هذا الخالق بالعدالة ؟

فمثل هؤلاء العجولين السطحيين،زعموا أنهم ينزهون الإله عن إيقاع العذاب ، فوصفوه جريا مع أهوائهم،بالظلم، وتغافلوا عما يقع من وراء حكمهم هذا من انتشار الفوضى والمظالم بين النـــاس ، مما يهدم المجتمـــع ، وينذر بأسوإ العواقب •

ولم يغفل القرآن الكريم عن الاشارة الى هذا المعنى، حيث أبى أن يسوي بين الطيب والخبيث،والمحسن والمسيء في آيات كثيرة منها :

(قل لا يستوي الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث) [المائدة : ١٠٠] •

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين

آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ســاء ما يحكمون) • [الجاثية : ٢١] •

(ومايستوي الأعمى والبصير•ولاالظلمات ولاالنور• ولا الظل ولا الحرور • وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء • وما أنت بمسمع من في القبور)•[فاطر: ١٩ ، ٢٢] •

وهكذا تجد أنه لا مناص من يوم عظيم ، ترد فيــه المظالم ، وتعاد فيه الحقوق ، وتزول فيه الشبهات ، فيسعد الصالح المستقيم بمــا كسب ، ويشقى الظالــم المستبد بما اكتسب ، جزاءً وفاقــاً (ألا يظن أولئــك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم • يوم يقوم الناس لرب العالمين) • [المطففين : ٤ ، ٦] •

*

الخلود

حينما نذكر الخلود والبقاء نذكر إلى جانبه العدم والفناء ، والعدم ، إما مطلق ، أو نسبي ، والفرق بينهما كبير خطير .

أما العدم المطلق ، فمحال كما تبينا من قبل ، وأما العدم النسبي ، أو الإضافي ، فهو تحول الشيء من حالة إلى أخرى ، فيختفي عن بعض الحواس ، ويظهر لبعضها ، أو يختفي عن الحس جملة ، ويظهر للعقل ، ونسمي هذا التحول عدما أحيانا ، دون التمييز بين العدم المطلق ، والعدم النسبي . ولإيضاح ذلك نضرب بعض الأمثلة : إننا نجد الماء مثلاً يتعرض لحالات ثلاث : السيولة ، والجمود، والغازية . وكلما تحول من حالة إلى أخرى ، اختفت بعض الصفات ، وظهرت صفات أخرى،حتى إذا تحول إلى بخار، ظننت أنه زال من الوجود ، وانعدم بالكلية ، ولكن : هل انعدم الماء حقيقة ، أم أنه مصون محفوظ في الجو ، لم ينقص من كتلته شيء ؟!

الحقيقة : أنه لم ينعدم ولم ينقص من كتلته شيء • بل أفل أفولا عن العين فقط ، ووزنه الجوهري ثابت ، سواء كان ثلجاً جامداً ، أو ماءً سائلاً ، أو غازاً متبخراً • وكما أنه يخيل إلى الجاهل بهذه التجربة ، أننا أصرنا جسماً الى العدم ، فذلك يمكن أن يخيل إليه أننا نوجد جرماً من العدم حينما نميع الهواء أو نجمده ، فنحيله إلى جرم محسوس ، بعد أن كان خفياً عن الأبصار •

وإذا أحرقنا قطعة من الخشب ، ظننا أنها انعدمت ، ولكنها لم تنعدم ، بل تحولت كتلتها الجامدة إلى ذرات فحمية في الأرض (رماد) وذرات فحمية في الهواء (دخان) وغازات ، وبخار ماء ، وحرارة • وبجمع الأوزان الجوهرية لمحاصيل الاحتراق نحصل على الوزن الجوهري لقطعة الخشب المذكورة كاملاً ، إذن : لم تنعدم قطعة الخشب ، وإنما تحولت من حالة إلى أخرى •

وقد ينتقل المماري إلى مثال آخر أخفى على النظر ، يتوهم منه العدم ، فيضرب احتراق البنزين مثلاً حينما لايرى بعد الاحتراق رماداً ولا دخاناً ، ونحن نعلم أنه

لايقول بهذا القول مطلع على العلم الحديث ، ولكننا نقول لهذا السائل : إن البنزين قد تحول بفعل الاحتراق إلى غاز الفحم والهيدروجين .مع طاقة حرورية ، ومجموع الوزن الجوهري للغازين الحاصلين ــ باستثناء الأوكسجين المأخوذ من الهواء ــ يساوي الوزن الجوهري للبنزين المحترق ، وتلك حقيقة علمية ثابتة ، إذن فالبنزين لم ينعدم ، ولم يخرج من الوجود ، والغازات الناتجة منه محصورة في الجو ، وإنما تحول من حالة إلى أخرى .

ولعل هذا المثال يفضح جهل ذلك الجاهل الذي ضرب لنفاد الانسان ــ مثلاً شمعة تحترق ، فظن باحتراقها أنها انعدمت وزالت حقيقتها من الوجود ــ وهكذا ينكشف لك أن الصورة التي يصورها الجاحد ، وتظهر لأول وهلة أنها مفحمة ، لاتثبت للنقد العلمي ، وسرعان مايظهر زيفها وبطلانها .

فيظهر من الأمثلة المتقدمة ، تعاقب وجود على عدم ، وعدم على وجود ، وكله من العدم النسبي الذي لو سميناه أفولاً أو تحولاً ، لكانت التسمية أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الوقوع في توهم العدم المطلق وظن النفاد .

إذا عرفت ما تقدم، وتيقّنته عقلاً وعلماً ، ثبت لديك أله ليس ثمة فناء لموجود ، ولا وجود لمعدوم ، وذلك بنسبة الحوادث بعضها إلى بعض ، لا بنسبة الحوادث إلى المطلق غير الحادث .

وبهذه الجملة الأخيرة نمتاز في بحثنا على (لافوازيه Iavoisie) حيث قال : « لاشيء يوجد ، ولا شيء يُعدم، والكل يتحول » فإن ذلك يصدق على الأشياء فيما بينها فحسب ، فإن لم يُلاحظ أنها حادثة في الأصل ـ كما أثبتنا ـ كان المعنى انها قديمة وذلك باطل كما بيّنّا ـ وان لم يلاحظ أن الذي أوجدها من العدم قادر على إحالتها إليه ، كان غافلاً عن هذه الحقيقة ، (ونسب العجز إلى الخالق المطلق) اذكر (القاعدة الثانية) ولذلك فإن قوله صحيح بنسبة الحوادث بعضها إلى بعض ، وباطل بنسبتها إلى خالقها ، بعد أن ثبت لدينا حدوث الأشياء ، وقدم خالقها .

وما ضل كثير من العلماء في هذا الميدان ، إلا أنهم ينظرون من جانب واحد ، فيطلقون الحكم من حيث هو نسبي ، أو أنهم لا يذهبون في معالجة هذه الأمور إلى الأصل،

لكي يأتي الفرع منسجماً معه ، ويكون الحكم نتيجة له •

نجد إذن أن مظاهر الأشياء تتعاقب ، وتمر من حـالة إلى أخرى فقط ، ولا يستطيع عالم في الدنيا مهما أوتي من قوة ان يُعدم ذرة من الوجود ، أو يضيف ذرة إلى الوجود ، ويُجمع العلماء على عدم ضياع المادة ، ويقررون أنها تتحول إلى قـدرة ، والقدرة إلى مادة ، والكل مصون ثابت في الوجود •

والخـلاصة التي نستنتجها من الأمثلة المتقدمة ، أن الأشياء مستقرة ثابتة ، وإن كانت تتحول من حالة إلى أخرى ، أي أنها باقية لاتنعدم ، وإنما تتعرض للعدم النسبي فحسب ، إذن فالموجودات خالدة ، بغض النظر عن الحالة التي تؤول إليها ، أو نوع الوجود التي تصير إليه ، والخلود هو النتيجة المنطقية العلمية ، والعدم هو الذي يحتاج إلى الدليل ولا دليل عليه • ومثل ذلك حال الإنسان حينما ينبعث إلى العالم الآخر ، لابد أن يكون بهذا المقتضى خالداً أبداً ، وقد أشارت الآيات إلى ذلك الخلود ، في النعيم أو الجحيم ، ومنها •

(جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار

خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ، ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه) [البينة : ٨] .

(إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا . خالدين فيها أبدا لا يجدون ولياً ولا نصيرا) [الأحزاب : ٦٤ ، ٦٥] .

وقد تكرر ذكر الخلود والتأبيد مجزوماً به في آيات كثيرة ، ولكننا لاحظنا من قبل أن هذا الخلود لا بد أنه مرهون لمشيئة الخالق ، وقد وجدنا هذا الاستثناء في موضعين من القرآن ، أحدهما في [سورة هود : ١٠٧] (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، إلا ما شاء ربك) .

والآخر في سورة الأنعام :

(قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) .

وهذا هو الفرق بين خلود المخلوق المتعلق بارادةالخلق ، وأبدية الخالق المطلقة التي لا يفتقر فيها الى سواه ، وهذه هي الحكمة من هذا الاستثناء ، وقد جاءت ضرورة ايرادها للتفريق ، وهذا هو المعنى الذي أكدناه في أول البحث ، واستدركناه على (لافوزيه) حينما قلنا : ان انعدام الأشياء أو ايجادها مستحيل بنسبة الأشياء بعضها الى بعض،لا بنسبة

الأشياء الى خالقها ، وهو الاستثناء عينه الوارد في الآية · (الا ما شاء ربك) وقد يقول قائل : ان هذا الخلود للمادة، فماذا يجدي الانسان خلود مادته دون روحه ولكننا أثبتنا في الفصل السابق عودة الحياة اليه ، وأثبتنا هنا أن الأصل في المادة البقاء ، وان العدم لم يقم عليه دليل ، فتحصل لنا بذلك خلود مادته وعودة حياته •

اذن فقد تقرر لدينا أن الخلود هو المقدور للموجود ، وأن الانسان حينما ينبعث ليوم الحساب ، مخلد أبداً في النعيم ، أو في العذاب المقيم ، على حسب ما قدم من خير أو شر •

وقد تفسد عليك الأمر مخيلتك ، فتصور لك العذاب حفرة صغيرة من حطب ولهب ، وهي أقرب الى الاستخفاف منها الى الرهبة والخشية ، كما تصور لك الجنة ونعيمها ، صورة مصطنعة مشوهة ، لا تحرك فيك شوقاً ولا رغبة • وما كان تبديد الخشية من العذاب ، والقضاء على الرغبة في النعيم في عالم خيالك الا تخلصاً من القيام بالواجب ، والرضوخ للتكليف ، فينشأ عنه عدم التقدير لتلك العواقب الخطيرة في السعادة أو الشقاء •

وهذا كله من غوائل الخيال عند الانسان ، والا فان أحدنا اذا أنذره خطر محدق ، لا يطمئن ولا ينام ، ولا يستمرىء الشراب ولا الطعام ، واذا أغرم بصورة من صور الجمال ، بذل الجهد كله في سبيل نيلها ، والوصول اليها ، ولو كان فيها حتفه أحياناً .

فالخيال متهم في هذا الشأن ، يجعل الحقيقة وهماً كالسراب ويجعل الوهم حقيقة ، فاذا عرفت أيها اللبيب أنه لا بد من المعاد ، ولا مناص من الخلود في سعادة أو شقاء ، فاختر لنفسك أحد الموردين من مصير محتوم .



سُبُل الضَلال

قد تعجب بعد ظهور الحق من إعراض كثير من الناس عنه ، وسلوكهم سبيل الباطل ، وقد تتساءل ــ لقوة الحجة وظهور البرهان ــ لماذا لا يؤمن الناس جميعاً ؟ فما هي العوامل التي تحول دون الايمان ، وتصرف الناس عن الحق ؟

من المعلوم البديهي أن المرء لا يسلم بأمر ، ما لم يطلع عليه ويثبت لديه ، إذن فعلمه شرط للقناعة والتسليم ، فالسبب الأول من أسباب الضلال هو الجهل .

ولقد ضل كثير من الناس جهلاً ، لم يصل الى مسامعهم بلاغ ، ولم يلجؤوا بأنفسهم الى علم وبرهان .

وإن منهم من عاش في الجهل ومات عليه ، ومنهم من خاض في البحث على جهل فضل وأضل ، ومنهم من جرى مع التيار الغالب ، وقلد النهج الشائع تقليداً أعمى ، فمن قلد الأشرار ، أصابه كفل من الشر ، ومن قلد الأخيار ، أصابه

نصيب من الخير ، ولكنه لا يبلغ به مستوى العلماء وشر أنواع الجهل إذا اقترن بالاعتزاز بالنفس ، أو ظن العلم ، فجال صاحبه وصال في ميادين العلم والفلسفة ، والفن والتربية ، فكان خطراً على نفسه وغيره ، (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير • ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) [الحج : ٨ ــ ٩] •

على أن الجاهل إذا تبرأ من الهوى والخوف والكبر ، تلك الآفات التي سنفصل فيها ، كان أول الناس اتباعاً للحق، وأولاهم بالاذعان للحجة ، وأكثرهم استفادة من النصيحة ، ولكن الجاهلين أصناف : فمنهم من يملك الاستعداد للفهم والتحقيق ، ومنهم من لا تتسع مداركه لشيء من ذلك ، فيضل الصنف الأول لعدم الاطلاع ، ويضل الصنف الثاني لعدم الاستعداد ، فوجب أن يكلم كل على حسب استعداده، ومبلغ فهمه ، دون اللجوء إلى الخدعة أو الافتراء • ولا بد أن يحصل بذلك تفاوت في المعرفة ، ولكنه كالتفاوت بين المهندس والعامل في صنع الآلة ، كل" علم على قدره ، فعمل في مجال علمه ، وكل أفاد واستفاد •

فالسبيل الأول من سبل الضلال هو الجهل ، وقد صرف كثيراً من الناس عن اتباع سبيل الحق ، فإن تعجب ، فإن بعض العجب يزول حينما ترى ما تفعله آفة الجهل في النفوس .

وأما السبيل الثاني من سبل الضلال ، فهو سبيل الهوى :

إن النفس البشرية تواقة الى الانطلاق ، متجافية عن القيود ، تستعجل الشهوة ، وتبحث عن اللذة ، ولا تصبر عن شيء من ذلك ، ما لم يتبين لها خطره ، أو ينلها ضرره ، والفرق بين من يذعن للقيود ، ومن لا يتقيد بالحدود ، أن الأول رضي بتقيد وقتي ، لينطلق بعده من التقيد ، وأن الثاني لم يبعد النظر ، فآثر الانطلاق الوقتي ، متحملا آثاره وعواقبه ، لغلبة الهوى عليه والفرق بين الجهلة ، وأصحاب الأهواء في الانصراف عن الحق أن هؤلاء ممن ضل على علم، فإن لم يكن ذلك ، كانوا مصابين بآفتين : الجهل والهوى ، وشر من ذلك إذا اقترن الهوى بالكبر كما سيمر معنا ، فانه أعسر أنواع الداء ، وأخطر سبل الضلال .

وأصحاب الهوى يختلفون باختلاف آلهتهم التي يعبدون من دون الله :

(أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ؟!) [الفرقان : ٤٣] .

فمنهم من أغرم بالمرأة حتى أعرض عن كل ما يحول بينه وبينها ، ومنهم من أغرم بالأموال ، حتى شغلته عن اتباع الحق : (شغلتنا أموالنا وأهلونا) [الفتح : ١١] . ومنهم من استنفذ الجهد في الجاه والمنصب ، ومنهم من جمع تلك الحظوظ ، فسعى الى اقتناص اللذة في مطعم ومنكح وملبس ، أو التسلط على الناس ، في علو جاه ومنصب ، وجعل المثل العليا وراء ظهره ، كأنها ليست منه في نسب ، وليس منها في سبب (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب) [آل عمران : ١٤] .

ومن علائم أصحاب الهوى أن الهوى يضرب على قلوبهم حجابا يحول بينهم وبين فهم ما يلقى إليهم ، فلا يعون خطابا ، ولا يصغون الى نصيحة ، وكأن الخطاب لا يصل

منهم الى موضع الإدراك ، ولقد نبه القرآن الكريم الى هذه العلة النفسية في الآية الكريمة : (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتو العلم ماذا قال آنفاً) [محمد : ١٦] .

ومن آفات الهوى تصور الغاوي أن لا شفاء لقلبه دون تحصيل غايته التي علق نظره بها ، وأوى بكليته إليها فهو حينما يغرم بامرأة بعينها ، يجزم دون تردد ، أنه لو اجتمعت نساء الدنيا بزينتهن ، وأتم فتنتهن ، لما حركن فيه رغبة . ولا ملكن لقلبه شفاء ، ولا ريب أنه كاذب على نفسه في هذا التصور ، فسيعرض عن هذه المرأة في يوم من الأيام ، ويتعلق بغيرها ، ويجزم الجزم السابق ، فيكذب على نفسه مرتين ، وتتكرر المشاهد بين نقض وإبرام وإقدام ، واحجام ، ويعجب المرء من نفسه حين يتحول من حال إلى حال بين تصديق وتكذيب .

ومن آفات الهوى القاهرة أنه يستبد سلطانه بصاحبه ، حتى يغلب عليه ، وهؤلاء هم الذين ضلوا على علم ، كالذي وصفته الآية الكريمة :

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين • ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) [الأعراف : ١٧٥ ــ ١٧٦]•

وصفاتهم العامة أنهم منهومون، شرهون، مستكثرون، تحكمت بهم العاطفة المستبدة، وطغت عليهم الشهوة العارمة، لا يطيقون التحول عن طعام أو شراب أو نكاح ، وهم متفاوتون في الرجوع عن الباطل بمقدار تفاوتهم في التهالك على الشهوة ، فان كانت الشهوة جامحة، والهوى مستحكما، والأسباب متوفرة ، كانت معالجتهم غاية في الصعوبة ، وندر أن يستجيبوا لداعي الحق •

(فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**) [القصص : ٥٠] •

ولسان حال هؤلاء حينما يجادلونك في الحق بعد ما تبين : لو أبحت لي الزنا ، ولو أحللت لي الخمر ••• ولو وهبت لي الكنوز ••• لاتبعت سبيلك ، فتلك عقبات الهوى، لايستطيعون تجاوزها ، وقد صدتهم عن الهدى ، فهدرت إنسانيتهم ، وقضت على انتاجهم في مجال العلم والأخلاق •

ولو تجرد هؤلاء الغواة من أوهام الهوى ، لأدركوا أنه ما وراء كأس الخمر إلا الضعف والسقم ، وما وراء فتنة الأنوثة التي سلبتهم عقولهم ، الا إراقة ماء حار[1] وان الذي يراد بهم من أمر الحياة أجل وأسمى ، ولا بد أن يدركوا ذلك في آخر المطاف ، ولكن بعد فوات الأوان •

والسبيل الثالث من سبل الضلال: سبيل الكبر والعناد، فان صنف المتكبرين شر الأصناف في الأذى والإصرار على الباطل ، تأبى عليهم كبرياؤهم أن يسمعوا النصيحة ، ويأبى عليهم عنادهم أن يرجعوا عن الخطيئة ، مبالغة في الدوران حول الذات ، واستغراقا في الأثرة، وتجاهلا للفضل حيثما ظهر •

فمنهم من يجد الصغار في الإصغاء ، ومنهم من يأنف من تقويم الأخطاء ، وينكر أن به حاجة لأحد من الناس •

---

(١) اما الحاجة الغريزية الضرورية، فقد نظمها الزواج، واما العلاقة الزوجية النبيلة وما تشتمل عليه من عواطف المودة والوفاء بين الرجل والمرأة ، فهي محض الخير، وليست في الصدد :

وبهذا يتبين أن الكبر مبني على وهم لا حقيقة له ، فأي بشر لا يخطىء ، فيحتاج لمن يظهر له خطأه ويرشده الى الصواب؟! وخطؤه هذا تكذيب لأنانيته التي قادته الى الاستكبار وخدعته حينما خيلت اليه أن لا حاجة به الى أحد ، وأي بشر لا يمسه السوء من الفقر والهرم والمرض ، فيحتاج لمن يعينه ويواسيه ، أو يشد أزره ويداويه ؟! فظن الاستغناء باطل ، والترفع بذلك الظن فاسد ، ولا حق للانسان بذلك بعد ثبوت ضعفه وعجزه وخطئه !

إذن فالناس بحكم بشريتهم الضعيفة ، القابلة للخطأ والصواب ، والصحة والسقم يحتاج بعضهم لبعض ، شاؤوا أم أبوا !

فأين أمست حقيقة الاستكبار أمام واقع الانسان القاهر ؟ لقد تكبر فرعون ، وادعى لنفسه ما ليس له بحق فنادى (أنا ربكم الأعلى) [النازعات : ٢٤] . فلما ضعفت نفسه عن مقاومة الغرق ، نادى : (آمنت أنه لاإله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل) [يونس : ٩٠] .

ومثل قصة فرعون في الاستكبار والخسار كثير في

واقعنا اليوم لمن أبصر وتفكر ، وتعرض مشاهده علينا في أكثر من منظر !

ويلج المستكبرون في العناد ، فيخرجونك عن الصدد الذي تدعوهم إليه ، ويطالبونك بالخوارق ، تعجيزاً لكل من يدعوهم الى الحق ، ولو أرادوا الحق لوصلوا اليه من أقرب طريق ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الفريق من هذه الوجهة ، كما في الآيات التالية :

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً • أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً) [الاسراء: ٩٠ ـ ٩٣] •

(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) [الأنعام : ٧] •

(وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) [النمل : ١٤] • ومن خطر الاستكبار ، امتداد ضرره الى

حيث يخضع فيه الضعيف للقوي ، والفقير للغني ، لاصرار المستكبر على الضلال ، وضعف المستضعف في المقاومة ، فتحيط العاقبة السيئة بالاثنين ، وتكون وبالاً على الطرفين.

وتصويرا لهذه العاقبة الأليمة وما يجره المتكبرون على المستضعفين الخاضعين المشتركين في الجريمة يمكنك أن تقرأ هذه المحاورة اللطيفة بين المتكبرين والمستضعفين بعد أن حقت عليهم كلمة العذاب في الآيات التالية :

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم الى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أندادا ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) [سبأ : ٣١ — ٣٣] .

يتبين لك إذن أن صنف المتكبرين أخطر الأصناف غائلة على نفس صاحبه ، وأشدها نكاية على الناس ، فهم ضالون

مضلون ، وما وقف في وجــه الحق منذ العصور الأولــى ــ معاندا محاربا ، ومنذرا مهددا ــ كالمتكبرين ، فحملوا أوزارهم كاملة ، ومن أوزار الذين أضلوهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون .

والسبيل الرابع من سبل الضلال ، هو سبيل الخوف، تلك الآفة التي قعدت بكثير من الناس عن سلوك ســبيل الحق ، ذلك أن الخوف حذر مفرط ، وتردد وإحجام،ولذلك تجد الخائفين في الصفوف الأخيرة من المجتمع ، سلبيين ، خاسرين ، وقل أن تجد جبانا ربح معركة ، أو بنى مجدا ، أو عاد على مجتمعه بالخير . والحق يستلزم لمن يقول به ويعمل له ، جرأة وثباتا ، وتضحية ، وهي عناصر يفقدها الجبان . ومما يعود به خوفهم على المجتمع من الضرر خذلانهــم لدعاة الحق ، بقعودهم عن نصرتهم ، وإعراضهم عن الحق بعدما تبين،ولقد ذمت بعض الآيات الكريمة الخوف والفرق، وجعلته منافياً للإيمان ، كأن الخائف يقف خوفه حجاباً يحول بينه وبين الإقرار بالحق ، حين يقتضيه الحق جرأة وتضحية.

(ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ولكنهم قوم

يفرقون[1] . لو يجدون ملجأ ، أو مغارات ، أو مدخلا ، لولوا إليه وهم يجمحون) [التوبة : ٥٦ ــ ٥٧] .

وعلى العكس من ذلك مجد القرآن الجرأة والقوة ، والشجاعة ، تلك العناصر التي تحول بين المرء وبين الضلال، إذا كان مرده الخوف ، كما في الآيات التالية :

(يجاهدون في سبيل الله ولا يخافــون لومة لائــم) [المائدة : ٥٤] .

(ولا يخشون أحداً إلا الله) [الأحزاب : ٣٩] .

(خذوا ما آتيناكم بقوة) [البقرة : ٦٣] .

وخير مثال ورد في القرآن عن ثبات أصحاب العقيدة وقوتهم مثال سحرة فرعون في ثباتهم وشجاعتهم على الرغم من تهديدهم بالصلب والقتل ، وانظر الى وصف ذلك الثبات الخارق في الآيات التالية :

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الــذي علمكــم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكــم من خلاف ،

---

(١) يفرقون : يخافون .

ولأصلبنكم في جذوع النخل،ولتعلمن أينا أشدعذاباًوأبقى• قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والـذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) [طـه : ٧١ — ٧٢] •

وقد ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه مـا يصده ذلك عن دينه » •

فإن لم يكن للمرء نصيب من هذا الثبات أمام البأس والخطر ، يخشى عليهأنيسلك سبيل الضلال بسبب الخوف والهلع •

فتلك خطوط أربعة بارزة : الجهل ، والهوى،والكبر، والخوف ترسم طريق الخطر ، وتقود الى سوء المصيـر ، وقد تتفرع عنها الفروع ، وقد تضاف إليها بعض المعالم ، ولـكـن بحثنا في هذه الرسالـة في حدود الأصـول دون الفروع •

خاتمة

من الناس من يعرف الحق ولا يؤمن به ، ومنهم من يؤمن ولا يعمل به ، فلا يصدّنك عن الحق بعدما تبين . ومنهم من يؤمن ولا يستقر على الإيمان لما يطرأ على فكره من الشبهات ، فلا يستطيع تمحيص الحق من الباطل ، فالحق الذي وصلت اليه يستلزم أن تقوم عليه بفكر ثاقب ، وصبر دائب ، لكي لا تتطرق إلى خيالك الشبهات ، ولا تقوم في طريقك العقبات ، وكن شجرة راسخة الأصل في الأرض ، باسقة الفرع في السماء لاتنال منها الرياح الهوج ، إلا كما ينال النسيم العليل من الجبل الصلد الأشم .

واعلم أن الغوائل التي تصرف عن الحق كثيرة على غير الفطن ، قليلة على اللبيب الحذر ، ومنها خدعة الخيال البشري ، حيث يبدأ خيالك يصور لك الإله ـ الذي أقررت بوجوده ، وقدرته وتصريفه ، على غفلة منك ـ كائنا يشبه الانسان ، جالسا في السماء ، منفصلا عن الأرض ، لا يتصل بها بعلم ولا قدرة ، وترى إلى جانب ذلك نمو النبات ، وتوالد

الانسان والحيوان ، ودوران الكواكب وما يستلزم كل ذلك من تدبير وإتقان ، فيداخلك في ذلك ما يداخل المرتاب من استحالة وصول قدرة ذلك الإله الى تلك الكائنات،وتصرفه في تلك الحادثات ، فهو إذن بحكم هذه الصورة الخيالية ، لا يضر ولا ينفع ، ولا يتصرف ولا يدبر ، ولا يقدم ولا يؤخر .

هذه مغالطة كبرى ، وغائلة خيالية خطرة،طالما تردى فيها كثير من البشر ، ولو عقل الذين انطلت عليهم الخدعة ، وسيطر عليهم الخيال ، فنسوا معالم الحقيقة ، لأدركوا أنهم حين كفروا ، لم يكفروا بالإله الحق الذي ليس كمثله شيء، والذي وسع كل شيء قدرة وعلما ، وإنما كفروا بالذي صنعته أيديهم ، وصاغته مخيلتهم ، كعابد الوثن حيث يضعه بيده ثم إذا بدا له أن يكفر به ، كفر به .

والحقيقة أن مثل هذا الظن الخيالي الذي يمكن أن يخامر الانسان ، لم يكن مغفلا في تاريخ الإيمان ، ولا بعيدا عن جو المحققين ، كيف وهم يقرؤون الآية الكريمة : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) ولذلك رأيناهم منذ مئات السنين يلهجون بمثل هذا الدعاء الجميل : « اللهم إنك لست بإله استحدثناه ولا برب يبيد

ذكره ابتدعناه » ليبين لك أنه ليس من نسج الخيال ، فلا تنطلي عليك تلك الخدعة ، وإنه الحق الذي فوق الخيال وانه ليس كمثله شيء ، وانه بكل شيء محيط ، فتقيم على الاعتقاد موقنا مطمئنا ، لا يعبث بك الخيال ، ولا تصرفك عن الحق غائلة من غوائل الضلال •

ومن الغوائل أيضا : ما يلقيه بعض العابثين المضلين من الشكوك والأوهام في أسماع المبتدئين (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) [لقمان : ٦] • فيثير قضية « القضاء والقدر » ويجعلها قضية كفر وإيمان، مع أن إقحام هذه المسألة في مثل بحثنا هذا خروج عن الموضوع ، إذ أنها من الفروع ، ونحن نتكلم في الأصول ، وهب أنك كنت تميل هذه المسألة الى الجبر ، أو الى القدرة، فهل يستلزم ذلك إلحادا في الله واليوم الآخر ؟!

إذن فهذه المسألة وأمثالها من الفروع ، لا تأتي عقبة في سبيل الإيمان ، ولا تصدر إلا عن مغرض ، ولا تسلك الا في أذني قاصر ، أما العاقل البصير الفطن المستنير ، فلا يستسلم لكل خاطر ، ولا يسلم إلا لبرهان قاهر •

والأجدر بك أيها العاقل أن تسلك سبيل الحق بعد أن ميزتها ، وتتجنب سبيل الغواية بعد أن عرفتها ، ذلك أن المراد من النظر التحقيق ، ومن القول العمل :

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون • كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) [الصف : ٢ — ٣] •

وإن قولا بلا عمل ، كشجرة بلا ثمر ، بل إن العلوم الحديثة بأسرها ، لو لم تنتقل من المجال النظري الى المجال (التطبيقي) لما أجدت العالم شيئا[1] •

فالانسان يفكر ليعمل ، (ويخطط) ليحقق ، وإذا رأى الحق أقبل عليه ، وإذا رأى الباطل أعرض عنه •

فالذين قرؤوا وعقلوا ، عليهم أن يعملوا ، ويدعوا الناس إلى الحق الذي وجدوه ، والقول الفصل الذي تحققوه ، وهذا هو الفرق الكبير بين مبادىء الفلاسفة النظرية المقصورة على فريق من الناس ، ودعوات الرسل العملية المنتشرة بين

---

(١) نريد بذلك جدواها في المكتشفات النافعة ، لا في المخترعات المدمرة التي جاءت نتيجة لانعدام الايمان وانهيار الاخلاق .

الناس ، والحقيقة أنه لا يخرج المرء من التناقض المشين ، ما لم يكن قوله مطابقا لعمله ، ولا يجني من عمله شيئا ، ما لم يكن واقعا فيه على الصواب .

ولعلك بعد أن ذكرتك بالعمل ، يقعد بك عنه غفلتك الماضية ، وذنوبك السالفة ، فاعلم أن اليأس لا يتطرق الى ذهن المؤمن الحصيف ، وأن الرجوع عن الخطأ فضيلة ، وأن الانقلاب في حياة الأفراد ليس بدعا جديدا ، فلتكن هذه الذكرى تجديدا للعهد ، وتبديلا للنّهج ، وإعلانا للتوبة، وقضاء على اليأس والقنوط :

(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون .أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين. أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين) [الزمر : ٥٣ — ٥٨] .

ولا يفوتني أن أذكرك ـ في النهاية ـ أن الأمر غاية في الجد ، فانك لم تخلق عبثا (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) ! [المؤمنون : ١١٥] .

وأن العاقبة في غاية الخطورة ، فإما إلى نعيم دائم ، وإما الى عذاب مقيم ، وقارن بين هذين المنزلين ، تدرك الفرق العظيم ، أما المنزل الأول :

ف (على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون) [الواقعة : ١٥ ـ ٢٤] . .

(إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم مايدّعون . سلام قولاً من رب رحيم) [يس : ٥٥ ـ ٥٨] .

(إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأساً دهاقاً . لايسمعون فيها لغواً ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا) [عم : ٣١ ـ ٣٦] .

(وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد • هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ • من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب • ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود • لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) [ق : ٣١ — ٣٥] •

وأما المنزل الثاني : فـ (لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور • وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، أو لم نعمركم ما يتذكر فيه مَنْ تذكر وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين من نصير) [فاطر:٣٦ — ٣٧]•

(قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين•ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون • قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون • إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين • فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون • إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) [المؤمنون : ١٠٧ — ١١٢]•

(وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم

تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم مــن زوال • وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال • وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال • فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام • يوم تبــدل الأرض غيــر الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار • وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد • سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) [إبراهيم : ٤٤ ــ ٥٠] •

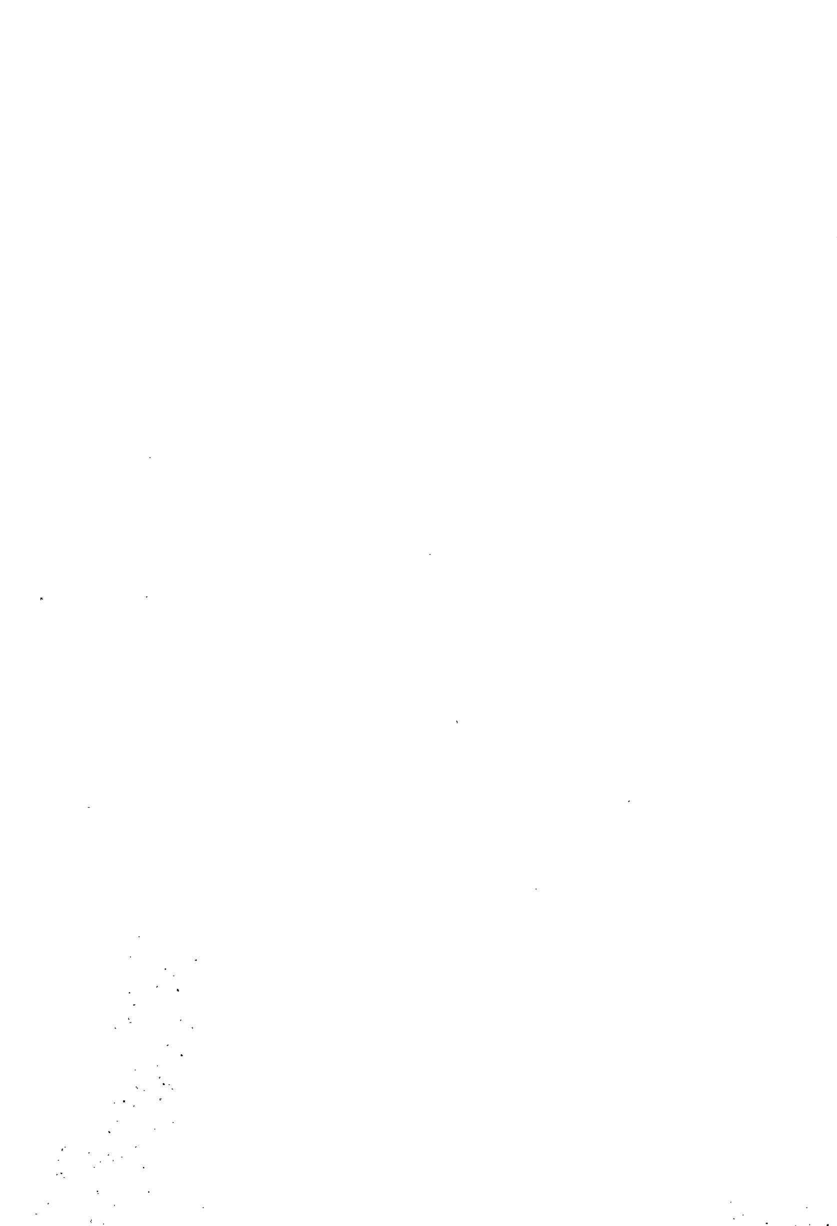
وإنك على قدر عقلك وتقديرك للعواقب تتخذ موقفك لذلك المصير المحتوم • وعليك أيها اللبيب بعد هذا التحقيق أن تستزيد من العلم لكي لا تقف ، فانه ليس لبحــر العلم غاية ، وأن تتحلى بالتواضع ، لكي لا يحجبك الكبر عــن رؤية الحق ، فإن التواضع مزية العلماء ، وزينة الحكماء ، وأن تتدرع بالشجاعة ، لكي لا تخشى الناس ، فإن خشية الناس عقلت ألسن الكثيرين عن الصدع بالحق ، وغلّت أيديهم عن فعل الصالحات ، وأن تنهج نهج العدالة ، كــي

لا تميل مع الهوى ، فإن كثيرا من الناس أضلتهم أهواؤهم، وأردتهم شهواتهم ، وأن تدعوَ الناس جميعا ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ لما آمنت به ، ووجدت أنه الحق .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

حسن هويدي

*





الفهرس

الصفحة	الموضوع
٢٩	ما هي حدود معرفة الخالق؟
٣٠	الكمال النسبي لا يمكن أن يحيط بالكمال المطلق
٣٢	لا يصح السؤال عن خالق للخالق الأول
٣٣	الكامل المطلق لا يمكن أن يفتقر الى موجد
٣٧	الطبيعة
٣٨	بطلان قول الطبيعيين
٣٨	مفهوم الطبيعة لغة واصطلاحاً
٣٩	حقيقة الطبيعة
٤٨	التوحيد
٥٥	ادلة القرآن
٥٥	النشأة الأولى
٦٢	إحياء الموتى
٧٧	دحض القول بنشوء الحياة من هبوط جراثيم من الكواكب
٦٩	دحض فرضية (دارون)
٩١	لا وجود للمصادفة في عالم الطبيعة
٩٨	يوم الحساب (الثواب العقاب)
١٠٣	الظلم والعجز مستحيلان على الكامل المطلق
١٠٣	لا بد من يوم الحساب للإثابة والعقاب
١٠٤	أدلة القرآن على يوم البعث

الصفحة	الموضوع
١٠٥	أدلة القرآن على يوم الحساب
١٠٥	بطلان قول المادية الجدلية في المصير النهائي
١٠٩	الخلود
١١٢	الرد على (لافوازيه) في قوله : لا شيء يوجد ، ولا شيء يعدم ، والكل يتحول
١١٤	الفرق بين خلود المخلوق يوم القيامة وبين أبدية الخالق المطلقة
١١٧	سبل الضلال
١١٧	السبيل الأول ـ سبيل الجهل
١١٩	السبيل الثاني ـ سبيل الهوى
١٢٣	السبيل الثالث ـ سبيل الكبر والعناد
١٢٧	السبيل الرابع ـ سبيل الخوف
١٢٨	تمجيد القرآن للجرأة والقوة في الحق
١٣٠	خاتمـــة
١٣٠	الغوائل التي تصرف عن الحق
١٣٥	الفرق بين منازل المؤمنين ومنازل الكافرين
١٣٧	ما يجب على المؤمن أن يتصف به